

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

حِينَ يَتَحَرَّرُ الْقَلْبُ
مِنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ

مُحَمَّدٌ رَدَّادُ السَّلَامِ



سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

حِينَ يَتَحَرَّرُ الْقَلْبُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ

رداد السلامي

الفصل الأول

(قُلْ): الحقيقة التي لا يجوز أن تبقى صامتة

تبدأ السورة بأمرٍ بالكلام: (قُلْ).

كأن التوحيد ليس معرفةً تُخبأ في الضمير، ولا حقيقةً باردةً تستقر في الذهن ثم لا تترك أثراً في اللسان والحياة. إنما هو كلمةٌ ينبغي أن تُقال، وشهادةٌ ينبغي أن تُحمل، وموقفٌ ينبغي أن يظهر في وجه العالم.

كان السؤال قد وُجّه إلى النبي ﷺ عن ربّه؛ فجاء الجواب من الله نفسه. لم يُترك للعقل البشري أن يرسم لله صورةً من خياله، ولا للفلسفة أن تتحت له تعريفاً من ظنونها، ولا للأساطير أن تنسب إليه ما تعرفه من أحوال البشر. تولى الله تعريف عباده بنفسه؛ لأن العقول قد تدلّ عليه، ولكنها لا تستقل بمعرفة ما يجب له من كمال، وما يستحيل عليه من نقص.

وهنا تبدّى مهابة السورة منذ كلمتها الأولى: إنك لا تستمع إلى إنسانٍ يحدثك عن تصوّره لله، بل تستمع إلى وحي الله وهو يصحّح تصوّر الإنسان عن ربّه.

(قُلْ)؛ لأن الناس قالوا كثيراً.

قال الوثنيون، وقال أهل الكتاب، وقال الفلاسفة، وقال أصحاب الأوهام. جعل بعضهم لله ولداً، وجعل بعضهم بينه وبين خلقه وسائط من الأرباب، وشبّهه

بعضهم بالمخلوقات، وحوّله آخرون إلى فكرةٍ غائمة لا تُسمع ولا تُبصر ولا تدبّر شيئاً. وبين ضجيج التصورات البشرية جاءت هذه الكلمة الحاسمة:

(قُلْ).

قل لهم كلاماً لا يصنعه خيال، ولا يلوّنه هوى، ولا يبذّله زمان. قل لهم من هو الله، لا كما تتوهمه العقول، بل كما عرّف سبحانه نفسه.

إن الإنسان إذا جهل الله لم تنفعه كثرة معلوماته عن العالم؛ لأنه قد عرف الأشياء وغاب عنه معناها، وأبصر الطرق ولم يعرف الغاية، وأحصى النجوم ولم يعرف من رفع السماء. تصبح معرفته الواسعة كمدينة مضاءة لا بيت له فيها؛ يرى كل شيء، ولا يعرف أين يسكن قلبه.

ولهذا لم تبدأ السورة ببرهان فلسفي طويل، بل بدأت بتكليف النبوة أن تعلن الحقيقة. فوجود الله ليس طرفاً في هامش الحياة، بل هو الحقيقة التي تستمد منها الحياة معناها كله. وإذا اختلّت معرفة الإنسان بربه، اختلّت بعد ذلك معرفته بنفسه وبالعالم وبالمصير.

ومن جمال كلمة (قُلْ) أنها تنقل المؤمن من مجرّد التلقّي إلى مقام الشهادة. لقد سمعت الحقيقة، فأصبحت مسؤولاً عنها. عرف قلبك ربّه، فلا ينبغي للسانك أن يتلعثم أمام الباطل. وليس المقصود أن يتحول المؤمن إلى خصومة دائمة مع الناس، بل أن تكون حياته نفسها نطقاً هادئاً بالتوحيد: خوفه، ورجاؤه، ودعاؤه، وصبره، واستغناؤه عن المخلوق حين يذلل المخلوق.

إن التوحيد إذا دخل القلب حقًا، جعل الإنسان قادرًا على أن يقول للكون كله: لستُ عبدًا لما تملكون، ولا أسيرًا لما تمنعون، ولا تستمد كرامتي من رضاكم؛ لأن لي ربًّا واحدًا، بيده خزائن كل شيء.

وهكذا تكون (قُلْ) بداية تحرير.

فالطغاة يريدون منك أن تسكت عن الحقيقة حتى يظلوا كبارًا في عينيك، والأهواء تريد منك أن تسكت حتى تبقى حاكمًا لقلبك، والمخاوف تريد منك أن تصمت حتى تستمر في تضخيم الأشياء من حولك. لكن السورة تفتح بابها بكلمة تطرد هذا الصمت: (قُلْ).

قلها أولاً لنفسك حين تتوزع بين المخاوف: الله واحد.

وقلها لقلبك حين يتعلق بالأسباب وينسى مسببها: الله الصمد.

وقلها لوهمك حين يقيس الخالق على المخلوق: لم يلد ولم يولد.

وقلها لخيالك حين يحاول أن يصنع لله شبيهاً: ولم يكن له كفواً أحد.

إنها كلمة واحدة في أول السورة، لكنها تُهيئ المؤمن ليُعيد ترتيب الكون في داخله. فما دام الله هو الحقيقة الكبرى، فإن كل شيء بعده يأخذ حجمه الصحيح: لا يتضخم بشرٌ حتى يصير معبوداً، ولا تتضخم مصيبةٌ حتى تصير نهاية، ولا تتضخم حاجةٌ حتى تدفع صاحبها إلى الذل، ولا تتضخم الدنيا حتى تحجب الآخرة.

تقول السورة للمؤمن منذ بدايتها: لا يكفي أن تعرف التوحيد؛ ينبغي أن ينطق بك التوحيد. ينبغي أن يظهر في مواقفك، وأن يُرى في ثباتك، وأن يُسمع في دعائك، وأن يملأ المسافة الواقعة بين سريرتك وسلوكك.

فالإخلاص ليس أن تقول: الله واحد، ثم تتوزع عبوديتك بين ألف سيّد؛ تخاف هذا خوف العبودية، وترجو ذاك رجاء الافتقار، وتبيع ضميرك لرضا ثالث، وتربط كرامتك بعتاء رابع. الإخلاص أن يصبح الواحدُ واحدًا في اعتقادك، وواحدًا في قصدك، وواحدًا في رجائك، وواحدًا في الوجهة التي يعود إليها قلبك كلما بعثته الحياة.

ومن هنا بدأت السورة بـ (قُلْ)؛ لأن التوحيد الذي لا يعيد تشكيل الإنسان يظل معلومةً على طرف اللسان. أما التوحيد الحيُّ فهو أن تقول الحقيقة، ثم تقيم حياتك كلها داخلها.

وهكذا نقف عند عتبة السورة، وقد سمعنا الأمر الإلهي الأول. وبعد (قُلْ) ينفتح السؤال الأعظم:

ماذا نقول؟

فيأتي الجواب الذي لا يستطيع الوجود كله أن يحيط بجلاله: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

الفصل الثاني

(هُوَ اللَّهُ): حين يقف القلب على باب المعرفة

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

تجيء كلمة (هُوَ) كأنها إشارة إلى معلومٍ تعرفه الفطرة، وإن عجز اللسان عن وصفه؛ ذلك الحضور الذي يشعر به الإنسان في أعماقه كلما انقطعت عنه الأسباب، وانفضَّ من حوله الناس، ووقف وحده أمام ضعفه العاري.

هناك، في أعماق موضعٍ من الروح، تعرف الفطرة إلى أين تتجه.

قد يطمرها الغفلة، وقد تكسوها العادة، وقد تضللها تصورات البيئته، ولكنها عند الشدة تنفض عنها الغبار، وتبحث عن الركن الذي لا ينهدم. وما أكثر الآلهة التي يصنعها الإنسان في الرخاء، وما أسرع سقوطها حين تعصف به المحنة! فإذا انقطع الحبل، وغاب الناصر، وضاق الأفق، انطلق من أعماقه نداءً لا يحتاج إلى تعليم:

يا الله.

لهذا لم تقل السورة: هو موجود فحسب؛ لأن القضية ليست إثبات وجود مجرد، وإنما معرفة مَنْ هو الموجود الذي يستحق أن يتجه إليه القلب، وتخضع له الجوارح، ويُسلم له أمر الحياة والمصير.

(هُوَ اللَّهُ).

الاسم الذي تجتمع عنده معاني الألوهية كلها. الاسم الذي لا يُطلق على أحدٍ سواه. الاسم الذي إذا دخل على وحشة الإنسان أنسها، وإذا دخل على خوفه أَمَّنَه، وإذا دخل على فقره أغناه، وإذا دخل على حيرته رَدَّها إلى يقين.

ليس المقصود بذلك أن تتبدل قوانين الحياة كلما نطق الإنسان باسم الله، ولكن أن يتبدل موقع الإنسان داخلها. قد يبقى الطريق طويلاً، غير أن السائر لم يعد وحيداً. وقد تبقى المحنة ثقيلة، غير أن القلب عرف مَنْ يدبِّرُها. وقد تتأخر الإجابة، غير أن الدعاء لم يذهب إلى غائبٍ أو عاجز، بل صعد إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية.

إن معرفة الله لا تعني أن يحيط العقل بذاته سبحانه؛ فالله أَجَلُّ من أن تحيط به عقول المخلوقين، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). وإنما نعرفه بما عَرَّفْنَا به أنفسه من أسمائه وصفاته وأفعاله، من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل. نعرف من آثار رحمته ما يجعلنا نرجوه، ومن آثار حكمته ما يجعلنا نسلِّم له، ومن آثار قدرته ما يحررنا من الخوف من غيره.

وبهذا تحفظ المعرفة مهابتها: قربٌ بلا إحاطة، ويقينٌ بلا تمثيل، وعبادة قائمة على ما جاء به الوحي، لا على ما ينسجه الخيال.

وكم يضلُّ الإنسان حين يحاول أن يتصور الله بقوانين الأشياء التي خلقها! إنه كمن يريد أن يزن السماء بميزانٍ صنعه لبيع الحبوب. العقل يهتدي بآيات الله،

ويتدبر أسماءه وصفاته، لكنه يقف عند حدود العبودية؛ لأن الأداة المحدودة لا تحيط بالرب العظيم.

ومن هنا جاءت سورة الإخلاص شديدة الصفاء؛ لا تترك في التصور منفذاً للخرافة. لا صورة، ولا نسب، ولا تجزؤ، ولا شبيه، ولا حاجة. كل كلمة فيها تهدم وَهْمًا، وكل آية تُعيد القلب إلى التنزيه الخالص.

اسمٌ يعيد الأشياء إلى أحجامها

حين تقول: الله، لا تضيف اسمًا إلى قائمة الموجودات، وإنما تذكر خالق الموجودات كلها.

الله ليس جزءًا من هذا الكون، ولا قوةً تنافس قواه، ولا كائنًا أعظم داخل سلسلته. هو سبحانه خالق الكون، منزّه عن مشابهة خلقه، قائمٌ عليهم، وهم قائمون به. كل قوةٍ سواه مستمدة، وكل مُلكٍ سواه عارية، وكل حياةٍ سواه موهوبة، وكل بقاءٍ سواه مؤقت.

وهذه المعرفة لا تسكن الذهن وحده؛ بل تنزل إلى الحياة، فتغيّر ميزانها.

فإذا ظلمك قويٌّ، تذكرتَ أن قوته محدودة.

وإذا خذلك قريبٌ، تذكرتَ أن البشر أبواب، وأن الله رب الأبواب.

وإذا أغلقت الدنيا في وجهك طريقًا، لم تظن أن خزائن الله قد أغلقت.

وإذا أعطاك أحد، لم ترَ فيه مصدر النعمة، بل سببًا ساق الله الخير على يديه.

وإذا منعك أحد، لم تجعل يده حاجزاً بينك وبين الله.

إن أكثر آلام الإنسان تبدأ حين يمنح المخلوقات حجماً أكبر من حجمها؛ يظن أن شخصاً واحداً يملك مستقبله، أو أن جماعة تملك كرامته، أو أن ما لا يملك سعادته، أو أن منصباً يملك قيمته. ثم تأتي (هُوَ اللَّهُ) فتدُّ تلك الأشياء إلى مقاديرها: هذه أسباب تجري عليها مشيئة الله، وليست أرباباً تقسم الأقدار.

المعرفة التي تنهي اليتم الداخلي

قد يعيش الإنسان بين أهله وأصحابه، ومع ذلك يسكنه يَتمُّ خفي؛ لأنه لم يجد قلبه الركن الذي يستند إليه. يطلب من البشر أن يفهموه فهماً كاملاً، وأن ينصفوه دائماً، وأن يحضروا كلما احتاج، ثم يكتشف أن في كل إنسان نقصاً، وأن لكل محبة بشرية حدوداً، وأن أقرب الناس قد يعجز عن رؤية الجرح الذي لا يظهر على الوجه.

عندئذٍ لا تعلِّمنا السورة احتقار روابط البشر، بل تخلِّصها من حملٍ لا تطيقه. فلا نطالب المخلوق أن يكون كامل الرحمة، دائم الحضور، محيط العلم بأحوالنا؛ فهذه معانٍ لا تليق على الكمال إلا بالله.

حين يعرف القلب ربّه، يحب الناس من غير أن يعبدتهم، ويأنس بهم من غير أن يجعل وجودهم شرطاً لبقائه، ويشكر إحسانهم من غير أن يرى أرزاقه معلقةً بأيديهم. فإذا حضروا شكر، وإذا غابوا لم ينهدم، وإذا أوفوا أحبهم، وإذا خذلوه لم يفقد ربّه.

هذا هو الغنى الذي تصنعه المعرفة بالله: لا أن يستغني الإنسان عن الناس في حاجات الحياة، بل ألا يجعل روحه رهينةً لهم.

من معرفة الاسم إلى عبادة المسمى

ليس العجب أن يعرف الإنسان لفظ الجلالة؛ فقد تنطق به الألسنة بينما تسجد القلوب لغيره. إنما العجب أن تعبر كلمة الله من اللسان إلى أعماق الإرادة، فتغير ما نخاف، وما نرجو، ولأجل مَنْ نعمل.

فمن قال: الله، ثم باع الحق خوفاً من بشر، لم يستوفِ بعدُ أثر هذه المعرفة. ومن قال: الله، ثم جعل غاية عمله أن تتحدث عنه العيون، فقد تسلل إلى قصده شركٌ خفي يحتاج إلى تطهير.

ومن قال: الله، ثم يئس لأن الأسباب أغلقت أبوابها، فما زال قلبه يتعلم أن الله ليس سبباً بين الأسباب، بل هو خالقها ومصرِّفها.

إن الإخلاص رحلةٌ تنتقل فيها كلمة الله من معلومةٍ موروثةٍ إلى حقيقةٍ حاكمةٍ. وكلما ترسخت هذه الحقيقة، خفت سلطان الأشياء على القلب. فلا المدح يرفعه فوق قدره، ولا الذم يهوي به إلى القاع، ولا العطاء يستعبده، ولا المنع يقطع رجاءه.

يصير له ميزانٌ أعمق من تقلب وجوه الناس: ماذا يريد الله؟ وما الحق الذي يرضيه؟

الباب الذي لا يُغلق

يحمل اسم الله في قلب المؤمن معنى الملجأ الأخير، لكنه ليس ملجأ اللحظة الأخيرة فقط. ليس الله باباً نطرقه عندما تغلق الأبواب ثم ننسأه إذا فُتحت، بل هو الباب الذي منه تأتي الأبواب كلها، وإليه يعود الشكر إذا فُتحت، وعنده يبقى الرجاء إذا أُغلقت.

نحن نخطئ حين نذهب إلى الله بعد أن نستنفد كل شيء، كأنه احتمالٌ أخير. والصواب أن نذهب إليه أولاً، ثم نأخذ بالأسباب ونحن نعلم أنها لا تنفع إلا بإذنه. نستشير الطبيب، لكن الشفاء من الله. نطرق أبواب الرزق، لكن الفضل من الله. نستعين بالناس فيما يقدرون عليه، لكن القلب لا يفتقر افتقار العبادة إلا إلى الله.

فالتوحيد لا يلغي الأسباب، بل ينزع عنها وهم الاستقلال.

وما أجمل أن يبدأ الإنسان أمره باسم الله؛ فهذا الإعلان الصغير يعيد ترتيب الطريق: لن أعتمد على قوتي وحدها، ولن أجعل النجاح وثناً، ولن أرى التعثر دليلاً على أن الله تركني. سأعمل لأنني مأمورٌ بالعمل، وأتوكل لأن النتائج ليست ملكي.

حين يصبح الكون آية

من عرف (هُوَ اللَّهُ) لم يعد ينظر إلى الكون كما كان ينظر إليه من قبل. المطر ليس ماءً يهطل فحسب، بل رحمةٌ تسوقها الحكمة. والليل ليس ظلمةً فحسب، بل سترٌ وسكن. والعقل ليس تفاعلاً أعمى، بل منحةٌ أودعها الله في الإنسان

ليعرف ويهتدي. والحياة ليست مصادفةً عابرة بين عديمين، بل ابتلاءً له غاية، وطريقٌ ينتهي إلى لقاء.

تصير الأشياء نوافذ تشير إلى خالقها، دون أن يحلّ الخالق فيها أو يشبهها؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. نرى آثار قدرته، ولا نحيط بذاته. نقرأ رحمته في النعم، وحكمته في التدبير، ثم نسجد اعترافًا بعجزنا قبل أن نسجد شكرًا لما عرفنا.

وهنا تبلغ اللغة مقام السجود أمام المعنى؛ لأنها مهما قالت عن الله، بقي كماله أعظم من أن تحيط به العبارة.

الوقوف على العتبة

تقول السورة: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾، ثم لا تترك القلب عند المعرفة المجملة، بل تنقله مباشرة إلى الكلمة التي تقطع جذور التعدد كلها: ﴿أَحَدٌ﴾.

ولم تقل: واحدٌ فقط؛ لأن الأحدية هنا ليست رقمًا في مقابل رقم، ولا فردًا يمكن أن يُتصوّر معه نظير. إنها وحدانيةٌ كاملة لا تقبل شريكًا، ولا جزءًا، ولا شبيهًا، ولا انقسامًا.

وهكذا، بعد أن عرف القلب الاسم الذي تنتهي إليه الأسماء، يستعد لأن يشهد سقوط الآلهة المتفرقة.

فالله الذي عرفناه ليس واحدًا ضمن متعددين، بل هو: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

الفصل الثالث

(أَحَدٌ): سقوط الآلهة المتفرقة

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

كلمة واحدة، لكنها تعيد بناء الوجود كله في القلب: (أَحَدٌ).

ليست وحدانية العدد فحسب؛ فالواحد في عالم المخلوقات قد يكون واحدًا من جنس له أمثال، وقد يكون جزءًا يقبل الانقسام، وقد يسبقه شيء أو يلحقه شيء. أما الله فهو **الأحد**: المتفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، الذي لا شريك له في ألوهيته، ولا نظير له في ربوبيته، ولا مثيل له في كماله.

إنها كلمة تُغلق كل طريقٍ يمكن أن يتسلل منه الشرك إلى التصور.

فليس معه إله يخلق، ولا ربٌّ يدبّر، ولا شريكٌ يقاسم السلطان، ولا شفيعٌ يفرض عليه إرادته، ولا قوةٌ تخرج عن مشيئته. ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والخلق كلهم – من أولهم إلى آخرهم – عبيدٌ له، فقراءٌ إليه.

ولا تعني أحديته سبحانه عزلةً أو نقصًا في الأفعال – تعالى الله عن ذلك – بل تعني كمالًا مطلقًا لا يحتاج إلى شريك، وسلطانًا لا يفتقر إلى معين، وعلماً لا يحتاج إلى مستشار، وقدرةً لا يعجزها شيء.

فالإنسان يستعين لأنه عاجز، ويستشير لأنه لا يعلم، ويتكاثر لأنه ناقص، ويتقوى بغيره لأنه محدود. أما الله فغني بذاته عن العالمين، وكل العالمين مفتقرون إليه.

حين تتوحد الحقيقة تتوحد الحياة

ما الذي تصنعه كلمة (أَحَدٌ) في الإنسان؟

إنها تجمع شتاته.

فالذي يعبد آلهة متعددة يعيش ممزقاً بينها، حتى وإن لم يسمّها آلهة. يريد رضا الله، لكنه يريد معه رضا الناس ولو بسخطه. يطلب الحق، لكنه يريد كذلك أن يحفظ مصلحته ولو هدمت الحق. يتطلع إلى الآخرة، لكنه يزن نفسه بموازن الشهرة والمال والظهور. تتعدد مراكز القيادة في داخله، فتتعدد معها وجوهه. له وجهٌ أمام القوي، ووجهٌ أمام الضعيف.

وله لسانٌ عند المصلحة، ولسانٌ عند انقطاعها.

وله مبدأٌ حين يكون المبدأ قليل الكلفة، ثم يصبح له مبدأٌ آخر حين يقترب الامتحان.

ليس هذا التناقض دائماً نقصاً في المعلومات، بل قد يكون ثمرةً لتعدد الآلهة الخفية في القلب. فالإنسان لا يسجد للأصنام الحجرية وحدها؛ قد يسجد للقبول الاجتماعي، أو للمنصب، أو للصورة التي يريد أن يحفظها في أعين الناس.

وقد يُقيم في داخله معابد صغيرة للخوف والطمع، ثم يظن أن التوحيد كلمةٌ قالها وانتهى الأمر.

لكن (أَحَدٌ) لا تقبل أن يكون الله واحدًا في العبارة، ويكون القلب موزعًا بين السادة.

إن كان الله أحدًا، فالغاية العليا واحدة.

وإن كان الله أحدًا، فالميزان الأعلى واحد.

وإن كان الله أحدًا، فالمعبود بحق واحد.

ومن هنا يمنح التوحيد الإنسان وحدةً داخلية لا تصنعها الفلسفات. فلا يضطر إلى تمزيق ضميره كي يرضي هذا، وتزييف كلمته كي يأمن ذاك، وبيع مبدئه كي ينال من ثالث. يعرف أن الخلق جميعًا لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا استقلالًا، وأن القلوب بين تدبير الله، وأن ما كُتب له لن يمنعه عنه أحد. فيتحرر.

لا يتحول إلى متكبرٍ على الناس، بل يصير أرحم بهم؛ لأنه لم يعد يطلب منهم ما لا يملكون. ولا يصبح مستهينًا بالأسباب، بل يأخذ بها دون أن يعبدها. ولا يعتزل الحياة، بل يدخلها بقلبٍ موحدٍ: يعمل بين الناس، لكن وجهته إلى الله.

الآلهة التي لا تحمل أسماء الآلهة

كان الوثني القديم يصنع صنمه من حجر، أما الإنسان الحديث فقد يصنع صنمه من فكرة، أو رقم، أو صورة، أو جمهور.

قد لا يركع له بجسده، لكنه يضع عند قدميه حرите وصدقه وطمأنينته.

حين يصبح المال هو الجواب عن كل سؤال، فقد تجاوز كونه وسيلة وصار معبودًا خفيًا.

وحين تصبح الشهرة معيار القيمة، يظل الإنسان واقفًا أمام عيون الناس كما يقف العابد أمام محرابه؛ يستمد منها وجوده، ويخشى انصرافها كأن انصرافها فناء.

وحين تتحول الجماعة إلى ميزانٍ يُعرف به الحق، بدل أن تُوزن هي بالحق، تدخل منطقة من القداسة لم يأذن بها الله.

وحين يُطاع الزعيم في الباطل لأن الاعتراض عليه يهدد المكانة أو المنفعة، فقد أخذ من القلب نصيبًا لا يليق إلا بالحق.

كل تلك الآلهة لا تقول للإنسان: اعبدني. إنها أذكى من ذلك؛ تقول له: لن تكون شيئًا بدوني. فإذا صدّقها، بدأت عبوديته.

ثم تأتي (أَحَدٌ) فتردّه إلى أصل حرите: الله وحده هو الذي لا تقوم حياتك إلا به، وما سواه سببٌ قد يأتي وقد يذهب، وقد ينفع وقد يعجز، وقد يقترب وقد يخذلك.

إن من عرف الأحد لا يجعل كرامته معلقةً بتصفيق جمهور، ولا معنى وجوده مربوطًا باعتراف مؤسسة، ولا يقينه مرهونًا بقبول جماعة. يستفيد من التقدير

ولا يعبد، ويتألم من الجحود ولا يسمح له أن يسلبه معرفة نفسه؛ لأن قيمته الأعمق مستمدة من عبوديته لله.

أحد في الرخاء والشدة

قد يظن الإنسان أنه موجد ما دامت الحياة لينة. فإذا نزلت به الشدة، ظهرت الجهات التي كان قلبه يتكى عليها في الخفاء.

هناك من يعبد الله ما دام باب الرزق مفتوحًا، فإذا ضاق رزقه اتهم الحكمة، كأن الله كان مستحقًا للعبادة بشرط أن يحقق له الصورة التي رسمها لحياته.

وهناك من يثق بالله ما دام يرى أول الطريق وآخره، فإذا احتجب عنه التدبير ظن أن الأمور خرجت عن الرحمة.

لكن الإيمان بـ (أحد) يعني أن يبقى الله وحده ربًا في وعيك حين تفهم وحين لا تفهم، حين يعطيك وحين يمنعك، حين تأتي أقداره موافقةً لاختيارك وحين تأتي على غير ما تشتهي.

فليس التوحيد عقدًا بين العبد وربّه على أن تسير الحياة وفق رغبات العبد؛ إنه تسليم لمن يعلم والعبد لا يعلم، ويقدر والعبد يعجز، ويرى العاقبة والعبد محجوب عنها.

وكم من منع أبكى صاحبه، ثم اكتشف بعد حين أنه كان سياجًا من الرحمة!

وكم من طريق أغلق، ولو فُتح لضاع خلفه العمر!

وكم من تأخير ظنه الإنسان نسيانًا، وكان إعدادًا خفيًا لما لم ينضج وقته!

ومع ذلك لا يجوز أن نحول كل ألم إلى قصةٍ مكشوفة العاقبة في الدنيا؛ فبعض الحكم تبقى مستورة، وبعض الجراح لا نفهم معناها كاملاً هنا. لكن المؤمن يوقن أن ما خفي عنه لم يخفَ عن الأحد، وأن العدل الذي لا يراه مكتملاً في الدنيا سيكتمل يوم لا تُظلم نفسٌ شيئاً.

وحدة المرجع ووحدة الميزان

إذا كان الله أحداً، فلا يملك أحدٌ أن ينازعه حقَّ التشريع لعباده. فالذي خلق الإنسان يعلم ما يصلحه، والذي يعلم السر وأخفى لا تخدعه المظاهر، والذي لا ينتفع بطاعة المطيع ولا يتضرر بمعصية العاصي منزَّةً عن الأهواء التي تفسد أحكام البشر.

ليس معنى هذا إلغاء العقل، بل تحريره من ادعاء السيادة على الوحي. فالعقل يهتدي، ويتفهم، ويستتبط، وينظر في الواقع، لكنه لا ينشئ من عنده حقائق الغيب، ولا يجعل ذوق العصر حاكماً على كلام الله.

العصور تتغير، وأمزجة الجماعات تتقلب، وما يعدُّه الناس اليوم فضيلةً قد يسمونه غداً تخلفاً، وما يرفعونه اليوم شعاراً قد يهدمونه غداً. ولو كان الحق تابعاً لتصفيق اللحظة، لأصبح الإنسان بلا أرضٍ ثابتة يقف عليها.

أما الإيمان بالأحد فيهب الأخلاق مركزاً لا يدور مع الأهواء. يكون العدل عدلاً ولو ظلمت الجماعة، والصدق صدقاً ولو ازدهر سوق الكذب، والعفة عفةً ولو سخر منها زمنٌ مريض.

إن الله الواحد يمنح العالم ميزانًا واحدًا؛ ولذلك كان التوحيد أساسًا للعدالة. فحين يكون الرب واحدًا، لا توجد سلالةٌ خُلقت من مادة القداسة، وأخرى خُلقت لخدمتها. ولا يملك حاكمٌ أن يتأله على المحكومين، ولا غنيٌّ أن يرى فقر الفقير دليلًا على نقص إنسانيته. الجميع عبيدٌ لرب واحد، وأكرمهم عنده أنقاهم.

الأخوة المولودة من الأحدية

كان يمكن للتوحيد أن يبقى قضيةً عقديّةً مجردة، لكنه في القرآن يتحول إلى بناءٍ للإنسان والمجتمع.

فإذا كان الخالق واحدًا، والأصل الإنساني واحدًا، والمصير إلى حكمٍ واحد، فمن أين يستمد المتكبر حقه في احتقار الناس؟

إن احتقار الإنسان لأخيه إعلانٌ خفي بأنه يقيس الخلق بميزانٍ آخر غير ميزان الله: اللون، أو النسب، أو القبيلة، أو المال، أو الموقع. أما (أَحَدٌ) فتسحب القداسة من تلك الموازين، وتضعها حيث ينبغي: العبودية لله والتقوى والعمل الصالح.

ليست القبائل آلهة، ولا الأحزاب آلهة، ولا الأنساب آلهة، ولا الأوطان آلهة. هذه انتماءاتٌ لها حقوقها المشروعة، لكنها إذا طلبت من الإنسان أن يظلم لأجلها، أو يكذب باسمها، أو يهدر كرامة غيره دفاعًا عنها، فقد تجاوزت حدودها وأرادت نصيبًا من العبودية.

والقلب الموحّد لا يسمح للانتماء أن يبتلع الحقيقة. يحب قومه، لكنه لا يعينهم على الظلم. وينتمي إلى جماعته، لكنه لا يجعل خطأها صوابًا لأنها جماعته. ويحفظ الوفاء لأصحابه، لكنه يعلم أن الوفاء للبشر لا يجوز أن يكون خيانةً لله.

هذه إحدى أعظم ثمرات (أَحَدٌ): أن تمنح الإنسان شجاعةً العدل مع القريب والبعيد؛ لأن مركزه الأخلاقي لم يعد القبيلة ولا الجماعة، بل الله.

من ازدحام الأصوات إلى سكينة الوجهة

يعيش الإنسان محاصرًا بالأصوات: صوت الخوف، وصوت الطمع، وصوت المجتمع، وصوت الماضي، وصوت الصورة التي يريد أن يراه الناس عليها. كل صوت يشده إلى جهة، حتى يغدو قلبه ساحةً يتنازعها الجميع.

ثم يدخل معنى (أَحَدٌ)، فلا تختفي الأصوات، لكن يفقد أكثرها سلطة الأمر. يبقى للإنسان همومه وحاجاته وعلاقاته، لكنه يعرف الصوت الأعلى الذي تُعرض عليه الأصوات كلها.

ما يرضي الله يُطلب، ولو تأخر ثناء الناس.

وما يسخطه يُترك، ولو زينه الناس.

وما عنده يُرجى، ولو بدت الأسباب فقيرة.

وما قضاه يُستقبل بالصبر، وإن بكى القلب تحت ثقله.

ليست هذه السكينة غياب الألم؛ فقد يبكي الموحّد، ويضعف، ويضيق صدره، ويحتاج إلى من يسانده. لكنها تعني أن ألمه لا يشتت قلبته. يسقط أحياناً، غير أنه يعرف إلى أين يعود. وتغلبه نفسه، لكنه لا يغيّر اسم الطريق كي يبرر انحرافه.

إنه يحمل في داخله بوصلةً تشير دائماً إلى الواحد.

التحرر من عبادة الذات

ويبقى أخفى الأصنام وأشدّها مراوغة: النفس.

قد يهدم الإنسان أصنام الخارج، ثم ينصب ذاته في الداخل. يريد أن يكون الحق ما يراه، والخير ما يوافق، والحكمة ما يفهمه، والعدل ما يحقق له مصلحته. فإذا خالفه الوحي بحث عن تأويلٍ يريحه، وإذا خالفه الواقع اتهم الحياة كلها بالفساد، وإذا أخطأ عجز عن الاعتراف؛ لأن اعترافه يجرح الصورة التي يعبدها عن نفسه.

وهنا تمضي (أَحَدٌ) إلى أعمق بقعة في القلب، فتقول له: لستَ مركز الوجود.

ليست رغبتك معيار الحقيقة، ولا فهمك نهاية المعرفة، ولا ألمك دليلاً على غياب الحكمة، ولا نجاحك برهاناً دائماً على رضا الله عنك.

أنت عبد.

وهذه الكلمة لا تُهين الإنسان، بل تنقذه من عبادة نفسه. فمن عرف عبوديته لم يضطر إلى ادعاء الكمال، واستطاع أن يقول: أخطأت. ولم يرَ في التراجع

عن الباطل هزيمة، بل عودةً إلى الله. ولم يجعل جهله عيبًا يستره بالكبرياء، بل بابًا يسأل منه أهل العلم.

العبودية للأحد تحرر الإنسان حتى من طاغيته الداخلي.

القلب الذي له ربٌّ واحد

ما أرهاق القلب مثل تعدد الجهات التي يرجوها ويخشها.

يريد أن يرضى عنه الجميع، وأن يضمن كل النتائج، وأن يحمي نفسه من كل خسارة، وأن تبقى صورته كاملةً في كل عين. وهذه مهمة لا يطيقها بشر. فقلوب الناس متقلبة، وأحكامهم متناقضة، وتوقعاتهم لا تنتهي. من جعلها قبلته عاش يركض في دائرة، كلما أرضى فريقًا أغضب آخر، وكلما أصلح صورته في مرآة تشوهت في مرآة أخرى.

أما المخلص فيسأل سؤالاً واحداً يعيد إليه سلامه: هل يرضى الله عن طريقي؟

لا يعني هذا أن يحتكر رضا الله لنفسه، أو يزكي عمله، أو يسيء إلى الناس بزعم أنه لا يبالي بهم؛ فذلك قد يكون هوىً متتكرراً في ثوب الإخلاص. بل يعني أن يفتش عن الحق بصدق، ويراجع نيته، ويقبل النصيحة، ثم لا يجعل ضجيج الناس رباً ثانياً.

هنا يستريح القلب من التمثيل.

لا يحتاج إلى صناعة وجهٍ لكل مجلس، ولا إلى تغيير مبادئه بحسب مواقع القوة. يصبح ظاهره أقرب إلى باطنه، وكلامه أقرب إلى ضميره؛ لأن الذي يراقبه واحد، والذي يرجو ثوابه واحد، والذي يخشى حسابه واحد.

وهذا هو الإخلاص في أصفى معانيه: أن تتجه حركة الإنسان كلها إلى جهةٍ واحدة، حتى لا يبقى في العمل موضعٌ لوثن الثناء أو رهبة البشر أو تعظيم الذات.

من الأحد إلى الصمد

لكن القلب، بعد أن عرف أن ربّه أحد، يسأل بفطرته: إذا كان وحده الإله الحق، فما صلة الخلق به؟ وإلى مَنْ يتجهون في فقرهم؟ وأين تذهب حاجاتهم التي لا تنتهي؟

فيأتي الجواب في كلمتين تحملان سرّاً افتقار الكون كله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

الأحد الذي لا شريك له هو الصمد الذي يقصده كل محتاج.

وما دام واحداً في ألوهيته، فهو وحده الغاية التي تنتهي إليها الضراعة. لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كل أحد. تمتلئ الخلائق فقراً، ويبقى وحده كامل الغنى.

وهكذا تنتقل السورة من تحرير القلب من تعدد المعبودات إلى تعريفه بالباب الذي تتجه إليه حاجاته كلها: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

الفصل الرابع

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: الوجهة التي تنتهي إليها الحاجات

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

كلمتان، لكن بينهما فقرُ الوجود كله وغنى الله المطلق.

الصمد: السيد الكامل في سؤدده، العظيم الكامل في صفاته، الذي تصمد إليه الخلائق؛ أي تقصده في حوائجها، وتقزع إليه في شدائدها، وهو الغني عن كل أحد، المفقر إليه كل أحد.

فإذا كانت ﴿أَحَدٌ﴾ قد نزعَت من القلب كل معبودٍ سوى الله، فإن ﴿الصَّمَدُ﴾ تملأ الفراغ الذي خلفه سقوط تلك المعبودات. فالتوحيد لا يترك الإنسان وحيداً في كونٍ بارد؛ بل يحرره من الأبواب الواهية ليبدلَه على الباب الذي لا يُغلق.

كأن السورة تقول:

لا تتوزع؛ فالله أحد.

ولا تضع؛ فالله الصمد.

الوجود كله في مقام الافتقار

كل شيء في هذا العالم يعلن فقره، وإن بدا قوياً.

الطفل يولد محتاجاً إلى يدٍ تحمله، والشيخ ينتهي محتاجاً إلى ذراعٍ تسنده.
والغني يحتاج إلى من يحفظ ماله، والحاكم يحتاج إلى من يطيع أمره، والعالم
يحتاج إلى ما لم يعلم، والطبيب قد يمرض بالداء الذي يداوي الناس منه.

كل مخلوق يحمل نقصه معه.

قد يستره وقتاً، وقد تمنحه الظروف مظهر الاستغناء، لكنه إذا تأملت حاله
وجدته قائماً على أشياء لا يملكها: هواءٍ لم يخلقه، وقلبٍ لا يأمره بالنبض،
وعقلٍ لا يضمن بقاءه، وأرضٍ لم يبسطها، وسماٍ لا يحملها.

الإنسان فقير قبل أن يسأل، وفقير وهو يأخذ، وفقير بعد أن يمتلك؛ لأن قدرته
على الاحتفاظ بما نال ليست بيده.

أما الله سبحانه فهو الصمد؛ كاملٌ في أسمائه وصفاته، غنيٌّ عن خلقه، لا تزيد
طاعتهم في ملكه، ولا تنقص معصيتهم من سلطانه، ولا يحتاج إليهم في تدبير
شأنٍ من شؤون الكون. خلقهم لا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليستعين بهم من
عجز، وإنما أوجدتهم بحكمته، ورزقهم بفضله، وتعبدهم بحق ألوهيته.

كل شيء قائمٌ به، وليس قيامه سبحانه بشيء.

وكل أحدٍ يستمد وجوده، والله هو الأول الذي ليس قبله شيء.

وكل حيٍّ ينتظر عليه الفناء، والله هو الحي الذي لا يموت.

هذه هي المسافة بين الرب والعبد: غنى مطلق في جانب الألوهية، وفقْرٌ أصيل في جانب العبودية.

وحين يفهم الإنسان هذه الحقيقة لا يشعر بالإهانة، بل بالسكينة؛ لأنه لم يعد مطالباً بأن يكون إلهاً صغيراً يدبر كل شيء، ويعرف كل شيء، ويضمن كل شيء.

يكفيه أن يكون عبداً للصمد.

الحاجات طرقٌ خفية إلى الله

يكره الإنسان شعوره بالحاجة؛ لأنها تذكره بضعفه. يريد أن يبدو مكتفياً، ثابتاً، ممسكاً بزمام حياته. وقد يخفي جرحه حتى عن يستطيع علاجه، ويكابر على وحدته، ويتظاهر بالغنى وهو يتصدع في الداخل؛ لأن العالم علّمه أن الحاجة عيب.

لكن سورة الإخلاص تعيد قراءة الحاجة.

ليست كل حاجة مذلة؛ فقد تكون الحاجة باب المعرفة. إنها الشق الذي يتسلل منه نور العبودية إلى جدار النفس المتكبرة. وما عرف كثيرٌ من الناس صدق اللجوء إلى الله إلا عندما انكسرت في أيديهم الأدوات التي كانوا يظنونها كافية.

كم من إنسانٍ كان يعرف اسم الله، فلما نزلت به الشدة عرف معنى الصمد!

كان يدعو بلسانه، ثم جاءت محنةٌ جعلت قلبه كله دعاء.

وكان يقول: توكلت على الله، ثم سقطت الأسباب من حوله، فعرف الفرق بين عبارة التوكل وحقيقته.

وكان يظن أن الناس يحملونه، فلما انفضوا عنه اكتشف أن العناية التي حملته عبر أيامه لم تكن أيديهم، وإنما كانت رحمة الله تجري أحياناً على أيديهم.

نحن لا نتمنى البلاء، ونسأل الله العافية، ولا نزع أن كل متألم يدرك الحكمة من ألمه. لكن المحنة قد تكشف للإنسان فقراً كان مستوراً عنه، وتردّه من وهم السيطرة إلى صدق الافتقار.

وبعض الانكسارات لا تأتي لتحطم القلب، بل لتكسر القفل الذي حال بينه وبين ربه.

الباب الذي نقصده قبل انقطاع الأبواب

ليس معنى الصمد أن نذكر الله بعد أن يخذلنا كل أحد فحسب، بل أن نقصده قبل كل أحد، ومع كل سبب، وبعد كل نتيجة.

نقصده قبل الطبيب، فنطلب منه الشفاء، ثم نذهب إلى الطبيب.

ونقصده قبل طلب الرزق، فنستمد منه التوفيق، ثم نسعى في الأرض.

ونقصده قبل القرار، فنستخير به ونستشير بهدايته، ثم نستفيد من عقول أهل الخبرة.

فالأخذ بالأسباب ليس نقصاً في التوكل؛ فالذي أمرنا بالتوكل هو الذي أمرنا بالسعي. وإنما النقص أن يتحول السبب في القلب إلى رب، وأن نظن أن نجاحه حتمي بذاته، أو أن فشله يعني نهاية إمكانات الله.

المؤمن يتناول الدواء، لكنه لا يعبد الوصفة.

ويطرق الباب، لكنه لا يظن أن الرزق مسجون خلفه.

ويشكر من أحسن إليه، لكنه يعلم أن المحسن نفسه عبدٌ ساقه الله إليه.

إنه يمد يده إلى السبب، ويبقي قلبه عند مسبب الأسباب.

وهذا التوازن من أدق ثمار التوحيد: ألا نهجر الأسباب باسم الثقة بالله، وألا نهجر الله باسم الأخذ بالأسباب.

حين تتحول الشكوى إلى عبادة

يحتاج الإنسان إلى أن يشكو؛ فالألم إذا بقي محبوساً طويلاً أثقل الروح. لكنه كثيراً ما يذهب بشكواه إلى من لا يملك له نفعاً، أو إلى من يزيد جرحه جرحاً، أو إلى من يستمع إليه بجسده بينما قلبه بعيد.

أما الصمد فلا تخفى عليه شكوى لم ينطق بها اللسان.

يعلم موضع الألم قبل أن تشير إليه.

ويعلم الحاجة قبل أن تصوغها في دعاء.

ويعلم ما تريد، وما ينبغي لك، وما يصلحك، وما يفسدك لو نلته.

وليس الدعاء إخبارًا لله بما يجهل - تعالى الله عن ذلك - وإنما هو إعلان العبد افتقاره، وعبادةً يتقرب بها إليه، واعترافٌ بأن مفاتيح الأمر ليست في يده.

ولذلك يختلف أن تشكو الله إلى الناس عن أن تشكو إلى الله ما تجد.

الأولى قد تحمل معنى الاعتراض على ربك، أما الثانية فهي عبادة الأنبياء:

قال يعقوب عليه السلام: **(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)**.

لم يُنكر حزنه، ولم يتظاهر بصلاية لا يشعر بها. حمل وجعه إلى الصمد؛ لأن القلب لا يُشفى دائمًا بإنكار الكسر، بل قد يبدأ شفاؤه حين يضع كسره بين يدي ربه.

يجوز لك أن تبكي.

يجوز أن تقول: يا رب، تعبت.

يجوز أن تسأله الفرج مرارًا، وأن تعود بالدعاء نفسه، وأن تعجز أحيانًا عن ترتيب الكلمات.

فالله لا ينظر إلى فصاحة العبارة، بل يسمع اضطراب الروح الذي لم تستطع العبارة حمله.

وقد يكون الأنين الذي لا يسمعه أحدٌ في جوف الليل أبلغ عند الله من خطبة تزدهم بالمحسنات.

كرامة السجود للصمد

إذا لم يصمد الإنسان إلى الله، صمد إلى غيره. فالروح لا تعيش بلا وجهة، والقلب لا يبقى فارغاً؛ فإن لم يسكنه افتقار العبودية لله، سكنه افتقارٌ مذلٌّ إلى الخلق.

وما أذلَّ الإنسان مثل أن يجعل حاجته كلها عند من يتلذذ بإذلاله!

قد يمتنُّ عليه بعطائه، أو يستثمر ضعفه، أو يذكِّره كلما اختلفا بأنه صاحب الفضل. وقد يضطر المحتاج إلى الصمت عن ظلم يراه، لأنه يخشى أن تُقطع عنه اليد التي يظن أن رزقه يأتي منها.

لكن (اللَّهُ الصَّمَدُ) تربي في المؤمن كرامةً عجيبة: يسأل الناس فيما يقدرُونَ عليه من غير أن يعبدَهُم، ويقبل المعروف من غير أن يبيع ضميره، ويشكر الواسطة من غير أن ينسب إليها خزائن الرزق.

فإن أُعطي شكر.

وإن مُنِع لم يتملق.

وإن أُهين بسبب حاجته، تذكر أن حاجته إلى هذا المخلوق عارضة، وأن فقره الحقيقي لا يكون إلا لله.

السجود لله يرفع الرأس أمام كل من يريد أن يشتريه. والافتقار إلى الصمد يحرر الإنسان من الافتقار العبودي إلى العبيد.

ليس معنى ذلك أن يرفض المساعدة أو يستنكف عن قبول الإحسان؛ فقد جعل الله الناس بعضهم أسبابًا لبعض. إنما معناه ألا يسمح للنعمة أن تنقل عبوديته من المنعم الحقيقي إلى اليد التي حملتها.

الصمد حين يتأخر الجواب

لكن سؤالًا مؤلمًا يمرُّ في قلوب كثيرين: إذا كان الله هو الصمد، فلماذا ندعوه أحيانًا ولا نرى ما طلبناه؟

هذا السؤال لا ينبغي أن يُقابل بعباراتٍ باردة؛ ففي داخله جراحٌ حقيقية: مريضٌ طال مرضه، ومظلومٌ امتد ظلمه، ووحيدٌ دعا بالأنس فلم يجده، وفقيرٌ أرقه الانتظار.

الإيمان لا يطلب من هؤلاء أن ينكروا ألمهم، لكنه يطلب منهم ألا يحصروا استجابة الله في صورةٍ واحدة رسموها بأنفسهم.

نحن نعرف ما نريد الآن، والله يعلم ما يصلح حاضرننا ومآلنا. نرى جزءًا صغيرًا من الطريق، وهو سبحانه يعلم الطريق كله. وقد تكون الإجابة عطاء المطلوب، وقد تكون دفع شرٍّ لا نراه، أو ادخار الأجر للآخرة، أو تأخيرًا إلى وقتٍ يعلم الله أنه خير.

وليس هذا وعدًا بأننا سنفهم في الدنيا كل منع. قد يمضي العمر ولا تُكشف الحكمة كاملة، وتظل بعض الأسئلة مؤلمةً حتى لقاء الله. لكن الفرق بين المؤمن وغيره أن المؤمن لا يجعل عجزه عن فهم الحكمة دليلًا على غيابها.

فعدم رؤيتنا للمعنى لا يعني أن الوجود صار عبثاً.

والطفل قد يبكي لأن اليد الرحيمة منعتة مما يؤذيه، لا لأن الرحمة غابت عنه.
ولله المثل الأعلى؛ فنحن لا نحيط بعلمه، ولا نقيس حكمته المحدقة بكل شيء
على نظرنا القصير.

إن الصمد ليس آلةً لتحقيق رغباتنا، بل الرب الحكيم الذي نعبد ونسأله ونسلم
له. والدعاء ليس أمراً نصدره إلى السماء، وإنما عبودية نرفع بها حاجتنا إلى
من يملكها، ثم نرضى بتدبيره وإن بقي في القلب وجع الانتظار.

ليس بينك وبينه ازدحام

من رحمة معنى الصمد أن حاجات الخلائق لا تزامم بعضها عند الله.

نحن إذا استمعنا إلى إنسان شغلنا قصته عن غيره، وإذا أعطينا واحداً نقص
ما في أيدينا، وإذا تعددت المطالب عجزنا أو ضيقنا. ولهذا نقيس العطاء الإلهي
أحياناً على عجزنا، فنشعر أن دعاءنا الصغير قد يضيع وسط ملايين
الدعوات.

لكن الله لا يشغله سمعٌ عن سمع، ولا تختلط عليه الأصوات، ولا تنقص
خزائنه بالعطاء. يسمع دعاء الإنسان في ظلمة غرفته كما يسمع ضراعة
الملهوف في عرض البحر، ويعلم دمة المظلوم كما يعلم سقوط الورقة في
أقصى الأرض.

لا تحتاج إلى موعدٍ تدخل فيه عليه.

ولا إلى واسطةٍ تعرّفه بحالك.

ولا إلى نسبٍ يرفع صوتك فوق أصوات الآخرين.

ولا إلى لغةٍ مخصوصة تبلغ بها أبواب السماء.

يكفي أن تدعوه؛ فالطريق إليه لا يمرُّ عبر قصور البشر، ولا تقف عنده حراسةٌ تمنع الضعفاء.

وكلما اتسعت معرفتك بالصمد، ضاقت المسافة بين حاجتك والدعاء.

الصمد ومعنى الوحدة

أقصى ما في الوحدة ليس غياب الأجساد، بل شعور الإنسان أنه غير مرئي؛ أن يتألم فلا يفطن أحد إلى ألمه، وأن يحمل في صدره عالمًا كاملاً ولا يجد من يصغي إليه.

وتأتي (اللَّهُ الصَّمَدُ) فلا تعد الإنسان بأن الناس لن يتركوه، بل تمنحه حقيقةً أعمق: أنه لن يكون متروكًا من الله.

قد يغيب الذين وعدوا بالحضور.

وقد يخذلك من حسبته سندًا.

وقد تمرض فلا يفهم المحيطون بك مقدار ما تجد.

لكن الله يعلمك علمًا لا يترك تفصيلًا من تفاصيلك خارج العناية. يعلم ضعفك الذي تستره، والكلمة التي جرحتك ولم تُظهر أثرها، والمحاولة التي بذلتها ولم يقدّر لها أحد، والدعاء الذي خجلت من التصريح به.

ليس معنى معية الله لعبده أن تزول عنه كل وحشة فورًا، أو أن يستغني عن الصحبة البشرية؛ فالإنسان مفطورٌ على الأنس، وله حق في المودة والرعاية. لكن معرفة الصمد تمنع الوحدة من أن تتحول إلى عدم؛ لأن وراء صمت العالم علمًا إلهيًا لا يغيب.

وكم من إنسانٍ لم يجد على الأرض قلبًا يحمل قصته، فحملها إلى السماء، فعاد منها بقوةٍ لم يعرف الناس من أين جاءت.

سقوط وهم الاستغناء

ليست الحاجة الكبرى أن ينال الإنسان ما يريد، بل أن يعرف أنه محتاج. فالذي يتوهم الاستغناء قد يُعطى الدنيا كلها، لكنه يفقد باب العبودية. يرى نجاحه من صنع ذكائه وحده، وماله ثمرة قوته فقط، ومكانته استحقاقًا ذاتيًا خالصًا. ينسى الألفاف التي لم يرها، والأبواب التي فُتحت له، والأقدار التي أبعدت عنه ما كان قادرًا على هدمه.

ويظل يقول: أنا فعلت، وأنا صنعت، وأنا بلغت؛ حتى يصير «الأنا» حجابًا كثيفًا بينه وبين المنعم.

أما المؤمن فيعمل ويبذل ويخطط، ولا ينكر جهده، لكنه يعلم أن جهده نفسه
نعمة: من أعطاه العقل؟ ومن منحه العافية؟ ومن هيا الفرصة؟ ومن حفظه
من عارضٍ صغير كان يستطيع تغيير حياته كلها؟

ليست العبودية أن تمحو جهدك، بل أن تعرف مصدر القدرة عليه.

ولهذا يعيدنا اسم **الصمد** إلى حقيقتنا كلما أغرتنا القوة: أنت لا تزال محتاجًا،
وإن امتلأت يداك. والذي أغناك قادرٌ أن يريك فقرك في لحظة.

وليس التذكير بالفقر تهديدًا يورث الرعب، بل معرفة تورث التواضع
والشكر. فما دام ما عندك نعمةً لا ملكًا ذاتيًا، فلن تحتقر من حُرّمها، ولن ترى
تفوقك دليلًا على تفوق جوهرك.

قَلْبٌ لَا يَتَسَوَّلُ قِيَمَتَهُ

من أشد حاجات الإنسان خفاءً حاجته إلى أن يشعر بأنه ذو قيمة. ولذلك يظل
يطرق أبواب الناس طالبًا شهادةً بوجوده: كلمة إعجاب، أو اعترافًا بفضله،
أو التفاتةً إلى عمله.

فإذا لم ينلها ظن أنه لا شيء.

وهنا تمتد عبودية **الصمد** إلى أعماق النفس، فتعلمها أن قيمتها لا يصنعها
إهمال الناس ولا يمحوها. قد يجهلون عملك، وقد ينسبونه إلى غيرك، وقد
يبخسونك حقك؛ وهذا ظلمٌ يؤلم ولا ينبغي تزيينه. لكن جهلهم لا يُخرج عملك
من علم الله، وبخسهم لا يمحو وزنه عنده.

كم من مشهورٍ في الأرض لا وزن له في السماء، وكم من مجهولٍ لم تحفظ
المجالس اسمه، لكن الله حفظ صدقه!

لا يعني الإخلاص أن الإنسان لا يتألم حين يُهمل، ولا أن المطالبة بالحق
تنافي العبادة. بل يعني ألا يجعل اعتراف الناس به المصدر الوحيد لقيمته،
وأن يتوقف عن الخير لأن التصفيق تأخر.

إنك تعمل للصمد؛ ولذلك لا يضيع عملك حين يضيع من ذاكرة البشر.

من الصمدية إلى نفي النسب

وبعد أن أثبتت السورة لله كمال الصمدية، نزّهته عن التصورات التي ألصقتها
الأمم بألوهيته: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

فالصمد الكامل لا يحتاج إلى ولدٍ يمتد به، ولا يخرج من أصلٍ سبقه، ولا
يخضع لسلسلة الميلاد والفناء. الولادة قانونٌ للمخلوقات المحتاجة؛ تحفظ بها
أنواعها لأن أفرادها يموتون. أما الله فهو الحي الباقي الذي لا يلحقه فناء،
الغني الذي لا يحتاج إلى وارث، والأول الذي ليس قبله شيء.

وهكذا تقودنا (الصَّمَدُ) إلى التنزيه ضرورةً:

فمن احتاج إلى والدٍ لم يكن صمدًا.

ومن احتاج إلى ولدٍ لم يكن صمدًا.

ومن ورث وجوده عن غيره لم يكن أولًا.

ومن يورث ملكه بعد فنائه لم يكن باقياً.

أما الله فهو الصمد الذي قامت به الموجودات، ولم يستمد وجوده من شيء.
سبحانه، تنزّه عن قوانين خلقه، وتعالى عن أوهام البشر.

وهنا تبلغ السورة مقاماً جديداً: بعد أن عرّفتنا بمن نقصده في افتقارنا، تبدأ
بتطهير تصورنا من كل ما لا يليق بكماله: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

الفصل الخامس

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ): تنزيه الله عن قوانين المخلوقات

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

بعد أن أثبتت السورة لله الأحدية والصدمية، جاءت هذه الآية تنفي عنه ما يناقضهما. فالله ليس واحدًا في سلسلة، ولا حلقةً في نسب، ولا فرعًا خرج من أصل، ولا أصلًا يحتاج إلى فرعٍ يحفظ بقاءه.

إنه سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء.

لا يبدأ وجوده عند لحظة، ولا يجري عليه زمان، ولا ينتظر امتدادًا في ذرية. فالزمن من خلقه، والميلاد من سننه في خلقه، والفناء حكمٌ كتبه على المخلوقات، وهو سبحانه منزّه عن أن تحكمه القوانين التي أوجدها.

هذه الآية قصيرةٌ في ألفاظها، لكنها تهدم تاريخًا طويلًا من الأوهام التي قاست الخالق على المخلوق. فالإنسان حين عجز عن إدراك جلال الألوهية نقل إليها ما يعرفه من حياته: آباء وأبناء، وأنسابًا وأسرًا، وتوالدًا ووراثه. وكأنه لم يستطع أن يتصور وجودًا إلا على الصورة التي اعتادها.

فجاء الوحي لا ليزيد الخيال صورةً، بل ليظهر المعرفة من الصور: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

لأن الولادة علامة احتياج

يولد المخلوق لأنه لم يكن ثم كان. يحتاج إلى أصلٍ يخرج منه، وسببٍ يسبقه، وزمنٍ يبدأ فيه وجوده. ولا يملك اختيار مولده، ولا أسرته، ولا جسده، ولا اللحظة التي يدخل فيها العالم.

يحمل الميلاد في ذاته شهادة الافتقار.

أما الله سبحانه فلم يأت بعد عدم، ولم يمنحه أحدٌ وجوداً، ولم يسبقه أصل، ولم يفتتح حضوره زمان. وجوده سبحانه واجبٌ كاملٌ لا أول له.

ولو كان مولوداً لكان مفتقراً إلى من ولده، ولصار الذي سبقه أحقّ بالألوهية منه. لكن السؤال ينتهي عند الله؛ لأن وجوده ليس معلولاً لوجودٍ قبله. هو خالق الأسباب كلها، فلا يُطلب له سبب، وموجد البدايات، فلا تسبقه بداية.

ولهذا تحرر الآية العقل من دوامة السؤال الطفولي: من خلق الله؟

لفظ **الخالق** يعني من لم يكن مخلوقاً. ولو افترضنا له خالقاً لما كان هو الله، ولا استمر السؤال بلا نهاية، ولم يوجد شيء. لا بد للعالم الممكن المحتاج من خالقٍ ليس ممكناً مثله، ولا محتاجاً إلى غيره؛ خالقٍ قائم بذاته، أولٍ بلا ابتداء.

إن العقل لا يُطلب منه أن يتصور كيفية وجود الله؛ لأن التصور البشري يعمل بالصور التي التقطها من عالم المخلوقات. لكنه يستطيع أن يدرك ضرورة وجود الخالق، وأن يعلم أن صفات الحادثين لا تجوز عليه.

هنا يعرف العقل مقامه: يهتدي إلى العتبة، ثم يقف خاشعاً؛ لأن عدم إحاطته بالله ليس نقصاً في الحقيقة، بل نتيجة طبيعية لمحدودية المخلوق أمام عظمة الخالق.

ولماذا لا يلد؟

يطلب المخلوق الولد لمعانٍ تتبع كلها من نقصه.

يريده امتداداً لاسمه، وعوناً على ضعفه، وأنساً لوحشته، ووارثاً لما يتركه بعد موته. يحتاج النوع إلى التناسل لأن أفراده يفنون؛ فلو لا أن يخلف بعضهم بعضاً لانقطع وجودهم.

أما الله فهو الحي الذي لا يموت، والباقي الذي لا يلحقه فناء، والغني الذي لا يحتاج إلى معين، والمالك الذي لا ينتقل ملكه إلى وارث.

لا تلحقه وحشة فيطلب مؤنساً.

ولا يعجز فيحتاج إلى مساعد.

ولا يفنى فيبحث عن يحمل اسمه بعده.

ولا ينقص سلطانه فيتقوى بذريته.

إن نسبة الولد إلى الله ليست تكريماً كما قد يتوهم قائلها؛ بل هي نسبة حاجة إليه، والله منزّه عن كل حاجة. إنها إنزالٌ للخالق إلى قوانين الأجساد، وإخضاعٌ للأبدى لمخاوف الفناء التي يحملها الإنسان.

ولذلك كان التنزيه رحمةً بالعقل؛ لأنه يمنعه من أن يعبد صورةً صنعها على مثاله، ثم سمّاها إلهًا.

الله لا يشبه الإنسان في صورة أكبر، ولا تسري عليه خصائص الأحياء التي خلقها. وكل ما خطر ببالك من هيئة أو كيفية، فالله تعالى ليس كمثله شيء.

نفى يبني اليقين

ليست (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) جملةً جدلية موجهةً إلى عقائد بعينها فقط؛ إنها قاعدةٌ كبرى في معرفة الله.

فهي تنفي عنه الماضي الذي بدأ فيه، والمستقبل الذي ينتهي إليه.

وتنفي الأصل الذي يستمد منه وجوده، والفرع الذي يمدُّ به بقاءه.

وتنفي عنه التجزؤ؛ لأن الولد في عالم المخلوقات يكون من جنس والده.

وتنفي المماثلة؛ لأن ثبوت البنوة يقتضي مناسبةً بين الوالد والمولود.

وهكذا لا تكتفي السورة بأن تقول لنا ما نؤمن به، بل تقيم حول التوحيد سياقاً يمنع الأوهام من التسلل إليه.

فمعرفة الله تقوم على إثبات ما أثبتته لنفسه من الكمال، ونفي ما نفاه عن نفسه من النقص، مع تنزيهه عن مماثلة خلقه. لا نفرغ الأسماء والصفات من معانيها، ولا نحولها إلى صورٍ بشرية.

إنها معرفةٌ تتوازن بين الإثبات والتنزيه: نعرف ربًّا حيًّا سميعًا بصيرًا رحيماً، كما وصف نفسه، ونوقن في الوقت نفسه أن حياته ليست كحياتنا، وسمعه ليس كسمعنا، وبصره ليس كبصرنا؛ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

حين يصنع الإنسان إلهاً على صورته

لماذا مال البشر إلى نسبة الأبناء والأنساب إلى الآلهة؟

لأن النفس تميل إلى تقريب الغيب بما تعرفه، ثم لا تنتبه إلى أنها حوّلت وسيلة التقريب إلى تشبيه. ينظر الإنسان إلى أعظم ما في عالمه من ملوكٍ وأسر، فيتخيل السماء مملكةً بشريةً أوسع: ملكٌ وأبناءً وأقرباء، يتوسط بعضهم عند بعض، ويتقاسمون السلطة كما تتقاسمها الأسر الحاكمة.

وهكذا تُسقط المجتمعات عيوبها على تصورها للإله.

فالمجتمع الطبقي يصنع سماءً طبقية.

والمجتمع الذي تحكمه الوساطات يتخيل أن الوصول إلى الله لا يكون إلا عبر سلالةٍ مخصوصة.

والمجتمع الذي يقَدِّس النسب ينقل قداسة الدم إلى العقيدة.

ثم تأتي سورة الإخلاص فتقطع الطريق:

لا أسرة إلهية.

لا دم مقدس يمنح صاحبه نصيبًا من الألوهية.

لا قرابة تجعل أحدًا شريكًا في ملك الله.

لا نسبًا يُغني عن الإيمان والعمل.

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

فالناس جميعًا أمام الله عباد؛ لا يتحول أحدٌ منهم إلى ابنٍ لله على الحقيقة، ولا يحمل أحدٌ في دمه عنصرًا إلهيًا، ولا يخرج بشرٌ مهما علا قدره عن حدود العبودية.

إن الله يكرم من يشاء من عباده بالنبوة والصديقية والصلاح، لكن التكريم لا ينقل المخلوق من مقام العبد إلى مقام الرب، ولا يجعل المحبوب شريكًا لمن أحبه.

وهذه هي عظمة الأنبياء أنفسهم: لم يكونوا أربابًا، بل بلغوا أعلى مراتب الكمال الإنساني بتحقيق العبودية لله.

تحرير الأنبياء من غلوّ المحبين

ليس أشد خطرًا على الصالحين من محبةٍ تتجاوز حدودها؛ فقد يأتي الغلو من باب التعظيم، ثم ينتهي إلى سلب النبي رسالته الكبرى.

فالرسول يأتي ليقود الناس إلى الله، فإذا غلا فيه أتباعه جعلوه غايةً من دون الله. ويأتي ليعلمهم العبودية، فيرفعونه فوق مقامها. ويقول لهم: اعبدوا ربي وربكم، فيأتي من بعده من ينسب إليه ما لم يقله.

والغلو لا يكرم النبي، بل يناقض مهمته.

إن تكريم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام يكون بالإيمان بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وبالإيمان بمعجزاته ورسالته، لا بنسبته إلى الألوهية أو البنوة. وتكريم محمد ﷺ يكون باتباعه ومحبته وطاعته فيما بُلِّغ، لا بدعائه من دون الله، ولا بمنحه شيئاً من خصائص الربوبية.

فالأنبياء أعظم الناس دلالةً على الله، لا أبواباً لعبادتهم هم.

وكلما صحَّ التوحيد، صحت المحبة؛ لأنها تضع المحبوب في المنزلة التي وضعه الله فيها، من غير جفاء يهدر فضله، ولا غلوٍ يرفعه فوق مرتبته.

لا أحد يرث مُلك الله

يرث الأبناء آباءهم لأن الموت ينزع الملك من يد، ثم ينقله إلى يدٍ أخرى. أما ملك الله فلا يتعرض للزوال، ولا ينتقل إلى خلف، ولا يخرج شيءٌ منه عن سلطانه.

نحن نقول: هذا بيتي، وهذه أرضي، وهذا مالي؛ ثم نمضي وتبقى الأشياء وراءنا، كأن ملكيتنا لم تكن إلا إقامةً مؤقتة. يعبر المال من يدٍ إلى يد، وتتغير الأسماء على الوثائق، وتتعاقب الأجيال على الأرض نفسها، ثم يظن كل جيل أنه المالك الأخير.

لكن الله هو الوارث حقاً، تبقى له الأرض ومن عليها.

وإذا استقر هذا المعنى في القلب خفَّ تعلُّقه بما يملك. لا يهمل ماله، ولا يترك عمارة الدنيا، لكنه يعلم أن الملك الذي في يده أمانةٌ قصيرة. فلا يظلم من أجله، ولا يهدم أخلاقه ليزيده، ولا يظن أن كثرة ما عنده تمنحه خلودًا.

إن الذي لم يلد لا ينتظر وارثًا، والذي لم يولد لم يرث ملكه عن أحد. ملكه أصيلٌ كامل، وملكنا عاريةٌ تنتهي بالموت.

سقوط قداسة السلالة

تبني بعض المجتمعات مراتب الناس على أنسابهم، كأن الفضائل تنتقل في الدم، وكأن القرب من أسرةٍ ما يمنح الإنسان حقًا دائمًا في السيادة على غيره.

لكن الآية تهدم الأصل العقدي الذي تتغذى منه قداسة السلالات: الله لا ينتمي إلى نسب، ولا تنتسب إليه سلالةٌ بنسب الولادة. الجميع خلقه، وكل علاقة به علاقة عبودية، لا علاقة دم.

لا يولد الإنسان وليًّا لمجرد اسم أسرته، ولا يرث التقوى من آبائه، ولا يحمل الإيمان في جيناته. قد يكون ابنُ النبي كافرًا، كما كان ابن نوح، وقد يخرج المؤمن من بيت طاغية، كما خرج مؤمن آل فرعون.

إن القرآن ينقل القيمة من الدم إلى الموقف، ومن النسب إلى العمل، ومن دعوى القرب إلى حقيقة التقوى.

ليس معنى ذلك إهدار الأنساب أو حقوق القرابة؛ فلأهل حقهم، ولآل بيت النبي ﷺ محبتهم وحرمتهم الثابتة. لكن المحبة شيء، ومنح العصمة أو حق

التسلط شيءٌ آخر. والفضل لا يحوّل صاحبه إلى كائنٍ فوق الحساب، ولا يجعل نسبه بديلاً عن العدل.

فلا أحد أقرب إلى الله بدمه، وإنما يقترب العبد بإيمانه وتقواه.

الإنسان الذي يبحث عن الخلود

في نفي الولد عن الله كشفٌ لأحد أعمق مخاوف الإنسان: الخوف من الزوال. يريد الإنسان أن يبقى. فإذا عجز جسده عن الخلود، بحث عن صورةٍ أخرى: ولدٍ يحمل اسمه، أو كتابٍ يحفظ أثره، أو بناءٍ يردده الناس بعده. وهذه الرغبة ليست مذمومةً في أصلها؛ فقد يكون الولد الصالح والعمل النافع من أبواب الخير. لكنها تكشف أن المخلوق يعرف في أعماقه أنه عابر.

أما الله فلا يحتاج إلى أثرٍ يخلّده؛ لأنه الباقي.

ولا يحتاج إلى اسمٍ يحفظه الناس؛ فالناس هم الذين يحتاجون إلى ذكره لتحيا قلوبهم.

ولا يزيده إيمان الخلق ظهوراً، ولا ينقصه جحودهم.

إن كل شهرةٍ بشرية معركةٌ قصيرة ضد النسيان، وكل أثرٍ إنساني معرضٌ لأن تمحوه القرون. وحده ما اتصل بالله ينجو من الضياع، لا لأن الناس سيذكرونه دائماً، بل لأن الله لا ينساه.

ومن هنا يتحول سؤال الإنسان من: كيف أجعل الناس يذكرونني؟ إلى: كيف أجعل عملي مقبولاً عند الله؟

قد ينسى الناس اسمك، ويبقى أجرك.

وقد يحفظون اسمك، ولا تجد في صحيفة عملك شيئاً.

فليس الخلود أن تبقى على الألسنة، بل أن تلقى الله بقلب سليم.

أبوة الخالق وأبوة المخلوق

حين ينسب الإنسان إلى الله الأبوة، فإنه يستعير علاقةً من عالم الأجساد والنسب ليصف بها ما لا يشبه الأجساد. وقد يتوهم أن هذه العبارة تعبر عن الرحمة والقرب، لكن الوحي اختار لنا من الأسماء ما هو أصدق وأكمل وأنزه.

الله الرحمن الرحيم، ورحمته ليست كرحمة الوالد؛ فرحمة الوالد محدودة بعلمه وقدرته، وقد يحب ولا يستطيع الحماية، وقد يريد الخير ولا يعرف طريقه. أما رحمة الله فكاملةٌ تليق بجلاله، مقرونةٌ بعلم شامل وقدره كاملة وحكمة.

وهو الرب الذي خلق وربّى ودبّر، لا الأب الذي تتولد عنه المخلوقات.

والأدب مع الله أن نسّميه بما سمّى به نفسه، لا أن نبحث عن عباراتٍ نظنها أرقّ، بينما هي أقلّ تنزيهاً وأشدّ التباساً.

فالوحي لا يضيق لغة المحبة، بل يصونها من الخطأ. نستطيع أن نقول: ربنا، ورحمننا، ومولانا، وخالقنا، وولينا؛ وكل اسمٍ من هذه الأسماء يفتح في القلب أفقاً من المعرفة الصحيحة بلا تشبيه.

الطمأنينة التي يصنعها الأزلي

ما الذي يعنيه للإنسان المتعب أن يكون ربُّه لم يولد؟

يعني أن السند الذي يتكى عليه ليس حادثاً يمكن أن يزول.

كل ما نألفه في الدنيا معرضٌ للتغير. أشخاصٌ كانوا يملؤون المكان ثم غابوا، وقوىٌ بدت راسخةً ثم انهارت، وبيوتٌ حسبها أهلها مأوى العمر ثم صارت ذكرى. لا شيء هنا يستطيع أن يعدنا بالبقاء.

أما الله فلا يتغير عليه زمان، ولا يعرض له فناء.

كان موجوداً قبل أن توجد مشكلتك، ويبقى بعد أن يطوي الموت كل ما يخيفك.

لم يبدأ ملكه حين بدأ الطغاة ظلمهم، حتى يُخشى أن يكون سلطانهم قد فاجأه. ولم يعلم مأساتك بعد وقوعها، بل أحاط علمه بها قبل أن تكون. ولم تخرج لحظةً واحدة من حياتك عن سلطانه.

إنك حين تستند إلى بشر، تستند إلى من يمكن أن يضعف أو يتغير أو يموت. وحين تستند بقلبك إلى الله، تستند إلى الحي الذي لا يموت.

وهذه المعرفة لا تمنع الحزن حين نفقد الأحبة، لكنها تمنع الفقد من أن يصبح سقوطاً في العدم. فالذين نحبهم لم يخرجوا بالموت من ملك الله؛ انتقلوا من دارٍ إلى دار، وبقي الرب الذي جمعنا بهم قادراً على أن يجمعنا في مستقر رحمته.

التوحيد يطهر الحب

لا تقول الآية للإنسان: لا تحب أبناءك، أو آبائك، أو أهلك. بل تضع كل حب في موضعه حتى لا يتحول إلى عبادة.

إننا نحب لأن الله أودع فينا المحبة، ونرحم لأن الرحمة من عطائه، ونأنس بالقرابة لأنها من آياته. لكن القريب لا يصبح مصدر الحق، والحب لا يُطاع في معصية الله، والولد لا يتحول إلى غاية تُرتكب لأجلها المظالم.

وحيث يعلم المؤمن أن الله لم يلد ولم يولد، يدرك أن رابطة العبودية لله أعلى من جميع الروابط. لا تلغيها، بل تحكمها وتزكيها.

يبر أباه، لكنه لا يتبعه في باطل.

ويحب ولده، لكنه لا يعينه على ظلم.

وينصر أهله بالحق، لا بأن يمنحهم حق الاعتداء على الآخرين.

فالمحبة التي تنفصل عن التوحيد قد تتحول إلى عصبية عمياء، أما المحبة في ظل التوحيد فتبقى دافئة وعادلة.

بين نفيين

تتألف الآية من نفيين يحيطان بوهم النسب من جهتيه:

(لَمْ يَلِدْ): فلا شيء خارج منه خروج الولد من الوالد.

(وَلَمْ يُولَدْ): وليس هو خارجاً من شيء.

فلا فرع، ولا أصل.

لا امتداد، ولا ابتداء.

لا وارث، ولا مورث.

لا جنس يندرج فيه، ولا سلالة ينتمي إليها.

كل هذه المعاني تنتهي عند عتبة الألوهية، ويبقى الله أحداً صمداً، متفرداً بكماله، منزهاً عن مشابهة العالمين.

لكن الوهم البشري قد يتراجع خطوةً أخيرة، فيقول: إذا لم يكن والدًا ولا مولودًا، فربما كان له شبيهة أو نظير، أو قوة تماثله وإن لم تنتسب إليه.

فتأتي خاتمة السورة لتغلق هذا الباب الأخير إغلاقاً تاماً: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

لا ولد، ولا والد، ولا نظير، ولا مثيل.

تنتهي الأنساب، وتسقط المقارنات، ويتوقف الخيال عند حده؛ ويبقى الله وحده في جلال الأحدية.

الفصل السادس

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ): سقوط آخر احتمالات التشبيه

تبلغ سورة الإخلاص خاتمتها، لكن الخاتمة هنا ليست إغلاقًا للمعنى، بل فتح لباب التنزيه الذي لا ينتهي: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

والكُفُو هو النظير والمثيل والمساوي. فالآية تنفي أن يكون في الوجود كله مَنْ يماثل الله أو يدانيه أو يشبهه في شيءٍ من خصائص ألوهيته وكماله.

لا يشبهه موجود.

ولا يساويه أحد.

ولا يقاربه ند.

ولا يشاركه شريك.

وإذا كانت الآية السابقة قد نفت عنه علاقة النسب، فإن هذه الآية تنفي عنه كل علاقة مماثلة؛ فقد لا يكون الشيء ولدًا لشيء، لكنه يكون شبيهًا به. فجاءت الخاتمة لتقطع الاحتمال الأخير:

ليس لله ولد.

وليس هو مولودًا.

وليس له – فوق ذلك كله – كفوٌ من أي وجه.

كأن السورة أقامت للتوحيد حصناً كاملاً: أثبتت الأحدية، وأثبتت الصمدية، ونفت النسب، ثم نفت النظير. فلم تترك في التصور زاويةً يمكن أن يختبئ فيها الشرك.

لماذا يبحث العقل عن شبيهه؟

يتعلم الإنسان بالمقارنة. إذا رأى شيئاً جديداً سأل: بماذا يشبه ما أعرف؟ وإذا سمع وصفاً غريباً حاول أن يرسم له صورةً من مخزون ذاكرته. وهذه الوسيلة نافعةٌ في معرفة المخلوقات، لكنها تقف عاجزةً عند باب الألوهية.

فكل ما في خيال الإنسان مأخوذٌ من عالم الخلق: أشكال، وألوان، وأحجام، وحدود، وحركات. فإذا حاول أن يتصور ذات الله، لم يجد إلا موادَّ مخلوقةً يعيد تركيبها. وحينئذٍ لا يكون قد تصوّر الله، وإنما صنع في ذهنه مخلوقاً عظيماً، ثم أخطأ فسمّاه إلهاً.

ولهذا لا تطالبنا العقيدة أن نرسم كيفيةً لذات الله وصفاته، وإنما نؤمن بما أخبر به عن نفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تمثيل ولا تكييف.

نعلم المعنى، ولا نحيط بالكيفية.

نثبت الكمال، وننفي المماثلة.

نعبد ربّاً عرّفنا بنفسه، ولا نعبد صورةً أنشأها الخيال.

وليس العجز عن تصور كيفية صفاته نقصاً في الإيمان؛ بل قد يكون اعترافاً بحدود الإنسان. فالعقل الذي يعرف أنه مخلوق لا يستحي من الوقوف؛ وإنما يضل حين يتجاوز قدرته، ويجعل ما لا يتخيله مستحيلاً.

إن البصر لا يرى كل الموجودات، والأذن لا تسمع كل الأصوات، والعقل كذلك لا يحيط بكل الحقائق. وعدم الإحاطة ليس عدماً للمُحاط به، بل حدٌّ في أداة الإدراك.

قلب السورة يردُّ على خيال الإنسان

تبدأ السورة بـ ﴿أَحَدٌ﴾، وتنتهي بـ ﴿أَحَدٌ﴾.

في أولها إثبات: الله أحد.

وفي آخرها نفي: لا أحد كفؤٌ له.

كأن كلمة الأحدية أحاطت بالسورة من طرفيها؛ فمن جهةٍ أثبتت له التفرد الكامل، ومن جهةٍ نفت أن يقترب أحدٌ من مقامه.

ولكن ثمة جمالاً آخر في بناء الآية: لم يقل السياق فقط: «ولم يكن أحدٌ كفؤاً له»، بل تقدّم الجار والمجرور: ﴿لَهُ كُفُؤًا﴾، فاختص النفي به سبحانه، وتوجه الانتباه إلى استحالة أن يوجد له كفاء. ثم جاءت ﴿أَحَدٌ﴾ في ختام السورة كأنها الضربة الأخيرة التي يتهاوى بها كل مثيلٍ متوهم.

كانت أول ﴿أَحَدٌ﴾ تاج الإثبات.

وصارت آخر ﴿أَحَدٌ﴾ خاتم التنزيه.

وبين التاج والخاتم قامت حقيقة الصمدية، وسقطت أوهام النسب.

هذا البناء القصير ليس مجرد ترتيبٍ لأخبار عقدية، بل هندسةٌ محكمة للمعرفة: تعرف مَنْ هو الله، وإليه تصمد، وعنه تنفي خصائص النقص، ثم تغلق على القلب باب التشبيه.

لا شيء يشبه رحمته

حين نقول إن الله رحيم، فقد يفهم الإنسان الرحمة من آثارها التي يعرفها، لكنه لا يقيس رحمة الله على رحمته.

رحمة الإنسان انفعاليٌّ قد يطرأ بعد علمٍ لم يكن عنده، وقد يريد بها الخير ثم يعجز عنه، وقد يرحم قريباً ويقسو على بعيد، وقد تفسدها المصلحة أو يرهقها التكرار.

أما رحمة الله فصفة كمالٍ تليق بجلاله، لا تشبه صفات المخلوقين. وسعت كل شيء، واقتربت بعلمٍ لا يجهل، وحكمةٍ لا تضل، وقدرةٍ لا تعجز.

ولهذا قد تكون الرحمة الإلهية في عطاءٍ يبهجك، وقد تكون في منعٍ يؤلمك وأنت لا تدرك وجه نجاتك فيه. نحن نقيس الرحمة غالباً براحة اللحظة، أما حكمة الله فتتنظر إلى مآل الطريق كله.

والتنزيه هنا لا يبعد الله عن القلب؛ بل يحمي رجاءه. فرحمة كرحمتنا يمكن أن تضعف، أما رحمته سبحانه فلا يلحقها عجز. وعطاء كعطائنا يمكن أن تنفذ خزائنه، أما خزائن الله فلا تنفذ.

إِنْ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ليست آيةً للجلال وحده؛ بل هي أيضاً آيةً للأمان. لأنّ الذي ترجوه ليس محدود الرحمة مثلنا.

لا شيء يشبه علمه

يعلم البشر بعد جهل، ويتذكرون بعد نسيان، ويستدلون بالظاهر على الباطن، وقد تخدعهم الصورة، أو تحجب عنهم المسافة، أو تختلط عليهم التفاصيل.

أما الله فيعلم السر وأخفى. لا يتجدد له علمٌ بعد أن لم يكن، ولا تتكشف له واقعةٌ كانت غائبةً عنه، ولا يحتاج إلى دليلٍ يقوده إلى الحقيقة. يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

يعرفك معرفةً لا تستطيع أنت أن تعرف بها نفسك.

تعرف من أفعالك ظاهرها، ويعلم هو دوافعها ومساربها الخفية. تظن نفسك مخلصاً وقد تسلل حب الظهور إلى موضعٍ لم تظن له، أو تنتهم نفسك بالعجز بينما يعلم الله صدق مجاهدةٍ لم يرها الناس.

ولهذا كان حكمه وحده كامل العدل. فالناس يحكمون على الجزء الذي ظهر لهم، وقد يرفعون منافقاً أتقن الصورة، ويهملون صادقاً لم يتقن عرض نفسه. أما الله فلا تخدعه البلاغة، ولا تستره الملابس، ولا تغير الحقيقة عنده كثرة المصنفين.

وهذا يمنح المظلوم سكينَةً، ويمنح المرائي خوفاً.

المظلوم يعلم أن حقيقة قصته لم تضع لأنها أسيء روايتها.

والمراي يعلم أن الصورة الجميلة لا تتجيه إذا فسد القلب.

لا شيء يشبه قدرته

قدرة الإنسان محدودة بأدواته وظروفه. يريد ولا يستطيع، ويبدأ ولا يكمل، ويعد ثم تعترضه الحوادث. وقد يملك اليوم ما يفقده غدًا.

أما الله إذا أراد شيئاً فلا يعجزه. لا يحتاج إلى تدريبٍ يسبق الفعل، ولا إلى آلةٍ تعينه، ولا إلى زمنٍ يستمد منه القوة. خلق السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما.

لكن الإيمان بقدرة الله لا يعني أن العبد يعرف متى تتعلق المشيئة بما يدعو به، أو أن كل ما يقدر الله عليه لا بد أن يفعله وفق رغبة الإنسان. فقدرته كاملة، وحكمته كاملة، ومشيئته نافذة؛ ولا تتعارض صفات كماله، بل يجري قضاؤه بعلم وحكمة.

ولذلك لا يقول المؤمن عند تأخر الفرج: إن الله لا يقدر، بل يقول: الله قادر، وأنا لا أعلم ما قضى ولا متى يأتي الفرج.

هذه المسافة بين القدرة الإلهية وتوقيت الاستجابة هي موطن الصبر. وقد يكون أثقل ما في البلاء أن تعرف أن الله قادرٌ على كشفه ثم يبقى؛ لكن الإيمان يضيف إلى معرفة القدرة معرفة الحكمة. فالذي يستطيع الكشف هو نفسه الذي يعلم متى يكون الكشف خيرًا، ومتى يكون التأخير بابًا إلى ما لا نراه.

وهنا لا يتظاهر المؤمن بأنه لا يتألم، بل يجمع بين الشكوى إلى الله والثقة به. يقول: يا رب، مسني الضر، وأنت أرحم الراحمين.

لا شيء يشبه عدله

يختلط العدل البشري بالمصلحة والهوى والعجز. قد يعرف القاضي الحق ولا يملك إنفاذه، وقد يملك القوة ولا يعرف الحقيقة، وقد يعرف ويقدر ثم يميل مع قريب أو يخشى صاحب نفوذ.

أما الله فلا يظلم مثقال ذرة. علمه يمنع أن تضيع عنده حقيقة، وغناه يمنع أن يطلب منفعة من ظلم، وقدرته تمنع أن يعجز عن إقامة الجزاء.

ولذلك لا تفهم الدنيا وحدها بوصفها المشهد الأخير للعدالة؛ ففيها يموت مظلومٌ قبل أن يسترد حقه، ويمضي ظالمٌ قبل أن يرى الناس عقوبته. ولو كانت القصة تنتهي عند القبر، ل بقي ميزان الوجود مكسورًا.

لكن الصمد الذي لا كفاء له لم يجعل الدنيا دار الجزاء الكامل، وإنما جعل وراءها يومًا تُعرض فيه الأعمال، وتسترد فيه الحقوق، ويعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الإيمان بالآخرة ليس تعزيةً خياليةً للمقهور، بل مقتضى كمال عدل الله. وما لم يحسمه تاريخ البشر سيحسمه رب التاريخ.

غير أن هذا اليقين لا يدعونا إلى السكوت عن الظلم في الدنيا؛ فالذي يؤمن بعدل الله مأمورٌ أن يقيم ما يستطيع من العدل، وألا يجعل الآخرة حجةً لتبرير

الجور. إنما تمنحه الآخرة قوةً تمنعه من اليأس حين تعجز يده عن استكمال الحق.

حين تُسحب صفات الألوهية من البشر

لا يقتصر معنى (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) على تنزيه التصور، بل يتحول إلى ثورة هادئة على كل طاغية يريد أن يمنح نفسه خصائص الرب.

فلا بشر يُطاع طاعةً مطلقة.

ولا عالم يُعتقد أنه لا يخطئ.

ولا قائد يملك أن يجعل ولاء الناس لشخصه معيارًا للحق.

ولا جماعة تحتكر الهداية لنفسها، ثم تنزع الإيمان عن خالفها في اجتهادٍ أو موقف.

ولا سلالة ترى أن دمها يمنحها حقًا إلهيًا في رقاب الناس.

كل إنسان يؤخذ من قوله ويُرَد، ويصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل، ويعدل وقد يظلم. أما العصمة المطلقة والحكم الكامل والعلم المحيط فليست إلا لله، والعصمة فيما يبلغه الأنبياء عن الله إنما هي بعصمته لهم، لا بألوهية في ذواتهم.

إن المستبد لا يبدأ دائمًا بطلب السجود؛ يكفيه أولاً أن يمنع المساءلة، ثم يجعل نقده خيانة، ثم يجعل طاعته مقياس الصلاح. وهكذا يتقدم نحو مقامٍ ليس له.

فتجيء الآية لتضع حدّه:

أنت لست كفوًّا لله.

لست فوق الحساب.

لست مالًّا لضمائر الناس.

لست مصدر الحق.

إنما أنت عبدٌ، ولو ازدحم الناس عند بابك.

التنزيه الذي يحرر المعرفة

حين يكون الله بلا كفاء، لا يجوز للإنسان أن يحاكم خبره إلى عادات المخلوقين. فما ثبت من الغيب بوحى صحيح لا يُرد لمجرد أنه لا يشبه المألوف؛ لأن المألوف حصيلة تجربتنا المحدودة في عالم الخلق.

غير أن هذا لا يعني فتح الباب لكل خرافة تُنسب إلى الدين؛ بل الوحي الصحيح هو الميزان. فلا نثبت لله شيئاً بحدسٍ أو رؤيا أو أسطورة، ولا ننفي عنه ما أثبتته لنفسه لأن عقولنا لم تعرف له مثيلاً.

التنزيه الحق لا يعطل النص، والإثبات الحق لا يشبه الله بالخلق.

إنهما جناحان لمعرفةٍ مستقيمة: إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيهٌ بلا تعطيل.

فإذا قيل: الله يسمع، آما بسمعه كما يليق بجلاله، ولم نتخيل جارحةً أو آلة. وإذا قيل: الله يرى، أثبتنا بصره الكامل، ولم نقسه على أبصارنا المحكومة

بالمسافة والضوء. وإذا جاء الخبر عن رحمته أو غضبه أو رضاه، آمنا بما جاء على الوجه اللائق به، دون أن نحوله إلى الانفعالات الناقصة عند الإنسان.

والقاعدة الجامعة تظل فوق كل تصور: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

عبادة بلا صورة

عاشت الوثنية دائماً على رغبة الإنسان في أن يرى ما يعبد. ينحت صنماً، ثم يتوهم أن وجود الصورة يقرب إليه الغيب. لكن الصورة لا تقربه من الله؛ بل تحبسه داخل حدود خياله.

فكل صورة محدودة، والله لا يحيط به حد.

وكل تمثال مصنوع، والله هو الصانع.

وكل صنم يحمله عابده، والإله الحق هو الذي يحمل عباده ويحفظهم.

كان الوثني يصنع معبوده بيديه، ثم يخاف منه. أما التوحيد فيكسر هذه المفارقة: لا تعبد ما تصنعه، ولا ما يصنعه خيالك، بل اعبد الذي خلقك، وعرفك بنفسه عن طريق الوحي.

إن العبادة بلا صورة ليست فراغاً؛ إنها امتلاءً بالمهابة. فعدم الإحاطة بالله لا يجعل علاقتنا به غامضةً بلا دليل؛ فقد عرفنا بأسمائه، وأرانا آياته، وأرسل رسله، وأنزل كلامه. لكن المعرفة تقف حيث يقف الوحي، فلا تقتحم الذات الإلهية بخيالٍ لا يملك إلا موادَّ الأرض.

هنا يبلغ الإيمان نضجه: أن يكون اليقين قويًا دون صورة، والقرب عميقًا دون تشبيه، والمحبة كاملةً مع بقاء المهابة.

حين تُشفى المقارنة

يعاني الإنسان لأنه يقارن نفسه بالآخرين. يرى مال هذا، ونجاح ذاك، ومحبة الناس لثالث، فيشعر أن وجوده ناقصٌ لأن غيره يملك ما لا يملك.

أما الآية فتذكّره بأن التفرد المطلق لله وحده، وأن المخلوقات لم تُخلق نسخًا متطابقة. لكل إنسانٍ ابتلاؤه وعطاؤه ومساحته في الحياة. ولا يلزم من تفوق أحدٍ عليك في باب أن يكون أعلى قيمةً عند الله.

لا تعالج الآية المقارنة النفسية معالجةً مباشرة، لكنها تقتلع أصلًا خفيًا منها: توهم الكمال في المخلوق.

من قارن نفسه بصورة الناس قد ينسى أن كل مخلوق ناقص، وأن ما يراه من حياة الآخر ليس حياته كلها. وحده الله كاملٌ من كل وجه؛ أما البشر فتتوزع بينهم المواهب والآلام، ويستتر كل بيتٍ ما لا يظهر في نوافذه.

فلا تجعل مخلوقًا معيارًا مطلقًا تقيس به نفسك. اقتدِ بالصالحين، وتعلم من المتفوقين، لكن لا تعبد صورهم، ولا تظن أن سعادتك لا تبدأ حتى تصبح نسخةً منهم.

لا تجعل لله ندًا في قلبك

قد يؤمن الإنسان بلسانه أنه لا مثيل لله، ثم يجعل في قلبه شيئًا يعامله معاملة الند.

يخاف بشرًا كأن قدره كله في يده.

أو يرجو مألًا كأنه مصدر الأمان المطلق.

أو يحب شخصًا محبةً تجعله يطيعه في الباطل.

أو يعظم فكرةً حتى يردّ لأجلها الوحي.

والندّ القلبي لا يشترط أن يسمّيه صاحبه إلهًا؛ يكفي أن يمنحه من التعلق والخضوع ما لا ينبغي إلا لله.

لذلك لا تنتهي سورة الإخلاص عند تصحيح العبارة، بل تدخل إلى شبكة العلاقات في القلب وتسال: هل يوجد هناك كفاء خفي؟

مَن الذي تخشى خسارته حتى تعصي الله؟

مَن الذي تنتظر رضاه ولو غضب الله؟

مَن الذي تتصور أن مستقبلك ينتهي إذا تركك؟

ما الشيء الذي إذا مُنع عنك شعرت أن الحياة فقدت معناها كله؟

هذه الأسئلة لا تعني أن كل خوفٍ أو حبٍّ أو حزنٍ شرك؛ فالبشر يحبون ويخافون ويحزنون بطبيعتهم. إنما الخطر أن يتجاوز الشعور حدّه، فيتحول المخلوق من سببٍ في الحياة إلى مركزٍ تقوم عليه الحياة، ومن محبوبٍ إلى قبلّةٍ تنازع حق الله.

والإخلاص أن يبقى الله أعلى من كل محبوب، وأرجى من كل سبب، وأعظم في القلب من كل مخوف.

آخر الآية وأول الحرية

ما إن يقول المؤمن: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

حتى تسترد الأشياء أحجامها.

الحاكم بشر.

والغني فقيرٌ إلى الله.

والعالم يحمل علمًا محدودًا.

والقوي ينتظر لحظة ضعف.

والجمهور لا يملك أن يحوّل الباطل حقًا بكثرتة.

والإنسان نفسه مخلوقٌ لا يملك أن يجعل هواه إلهاً.

لا يبقى كبيرًا على الإطلاق إلا الله، ولا كاملاً على الإطلاق إلا الله، ولا غنيًا على الإطلاق إلا الله.

وهذه المعرفة لا تسحق الإنسان؛ بل ترفعه. فالذي يسجد للأعلى وحده لا ينحني قلبه لمن دونه، والذي يعرف كمال الله لا ينخدع بادعاءات الناقصين، والذي يعلم أن لا كفاء له لا يبحث في الأرض عن إلهٍ بديل.

وهكذا تُختتم السورة، ولكن أثرها الحقيقي يبدأ بعد التلاوة.

فقد قالت لنا مَنْ نعبد، وإلى مَنْ نصمد، وعمّا ننزهه، وكيف نحفظ القلب من التشبيه والشرك. بقي أن تنتقل هذه الحقائق من المصحف إلى الإنسان؛ من الآيات الأربع إلى تفاصيل العمر.

وهنا يبدأ الفصل الأخير من رحلتنا:

الإخلاص: حين يصبح التوحيد حياةً كاملة

فليس المخلص من قرأ السورة بلسانه فحسب، بل من أعادت السورة ترتيب قلبه؛ فلم يبقَ فيه مع الله معبود، ولا عن الله مستغنى، ولا لله في خياله شبيه، ولا في ضميره ندّ.

الفصل السابع

الإخلاص: حين يصبح التوحيد حياةً كاملة

انتهت آيات السورة، لكن رحلة الإخلاص لم تنتهِ.

لقد قالت السورة في كلماتٍ قليلة ما تحتاج حياةُ المؤمن كلها إلى تعلُّمه:

(قُلْ): لا تحبس الحقيقة في قلبك.

(هُوَ اللَّهُ): اعرف إلى من تتجه.

(أَحَدٌ): لا توزّع عبوديتك.

(اللَّهُ الصَّمَدُ): احمل إليه حاجتك.

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ): نَزَّهه عن خصائص المخلوقين.

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ): لا تجعل له مثيلاً في اعتقادك، ولا ندّاً في قلبك.

هكذا بُنيت السورة: إثباتٌ يملأ القلب، ونفيٌ يطهره. معرفةٌ بالله، ثم تحريرٌ من كل تصورٍ لا يليق به. وكأنها تغسل صفحة الروح من زحام الآلهة، ثم تكتب عليها اسم الله وحده.

لكن لماذا سُميت سورة الإخلاص مع أن لفظ الإخلاص لا يرد في آياتها؟

لأنها أخلصت الحديث عن الله، فلا موضوع فيها سواه. ولأنها تخلّص الاعتقاد من شوائب الشرك والتشبيه. ولأن من عرف الله كما تعرّفه هذه السورة، وجب أن يُخلص له قلبه وعمله ووجهته.

فالإخلاص ليس فصلاً زائداً على التوحيد؛ إنه التوحيد حين يسري في الحياة.

من صفاء العقيدة إلى صفاء القصد

قد يعرف الإنسان أن الله واحد، لكنه يعمل لعيون كثيرة.

يصلّي لله، غير أن قلبه يلتفت إلى نظرة الناس.

ويكتب كلمة الحق، لكنه يتخفى في داخلها طلب الشهرة.

ويتصدق، ثم ينتظر أن تحفظ المجالس اسمه.

ويدافع عن قضية عادلة، لكنه يحب أن يصبح هو القضية.

هنا يظهر الفرق بين صحة الاعتقاد وكمال الإخلاص. فالأول يقرر أن الله وحده هو المعبود بحق، والثاني يجعل العمل فعلاً متجهاً إليه وحده.

والرياء لا يبدأ دائماً كقرارٍ صريح بالخداع؛ قد يدخل رقيقاً كخيطة الضوء تحت الباب. يُعجب الإنسان بثناء الناس، ثم يبدأ بتعديل عمله طلباً للمزيد، ثم ينظر إلى نفسه بعيون الجمهور، حتى يصبح التصفيق هو الذي يقرر متى يعمل ومتى يتوقف.

لهذا يحتاج الإخلاص إلى مراقبةٍ دائمة، لا إلى شهادةٍ يمنحها الإنسان لنفسه. فمن قال: أنا مخلص، قد يكون أحوج الناس إلى تفتيش قلبه. والقلوب تتقلب، والنية الواحدة قد يدخلها أكثر من باعث، ولا يعلم السرائر على كمالها إلا الله.

ليس المطلوب أن تشغل بنيتك حتى تعجز عن العمل؛ فهذا مدخلٌ آخر من مداخل الشيطان. بل صحّح قصدك، واستعن بالله، وابدأ، ثم جدّد النية كلما أحسست التفات القلب.

فالإخلاص ليس حالةً نبلغها مرة ثم نطمئن إليها، بل عودةً متكررة من الخلق إلى الله.

أن تعمل وإن لم يرك أحد

من علامات الإخلاص أن تبقى للخير قيمته حين يغيب المشاهدون.

فالصلاة في الغرفة المغلقة لا يقل معناها لأن الناس لا يعلمون بها. والدمعة في جوف الليل لا تحتاج إلى شاهدٍ من البشر. والكلمة التي تجبر قلبًا مكسورًا تظل عظيمة، ولو لم تُلَقط لها صورة.

إن كثيرًا من الأعمال تموت حين تُطفأ عنها الأضواء؛ لأنها لم تكن تستمد حياتها من الله، بل من انتباه الجمهور.

أما العمل الخالص فيستطيع أن يعيش في الظل.

ليس معنى ذلك أن كل عملٍ معلنيٍّ مرءاة؛ فقد يكون إعلان الخير تعليمًا أو قدوةً أو دعوةً إليه. كما أن إخفاء العمل لا يكفي وحده لإثبات الإخلاص؛ فقد

يُعجب الإنسان بنفسه لأنه أخفاه. المدار على القلب: لِمَن فعل؟ وما الذي كان سيحدث لو لم يعلم به أحد؟

إن المؤمن قد يفرح بثناء الناس، وهذا من طبيعة البشر، ولا يكون الفرح نفسه رياءً بالضرورة. لكن الخطر أن يصبح الثناء غاية العمل، أو أن يترك الخير إذا لم يأتِ الثناء.

المخلص لا يكره أن يُعرف الحق، لكنه لا يريد أن يحجب شخصه الحق الذي دعا إليه. يفرح أن تصل الرسالة، ولو لم يُذكر حاملها.

الإخلاص لا يعني إهدار الحق

قد يُطلب من المظلوم أن يسكت عن حقه باسم الإخلاص، وكأن إخلاصه لا يثبت حتى يرضى بالبخس. وقد يُقال لصاحب الجهد: لا تذكر ما صنعت، ولا تطالب بأن يُنسب عملك إليك؛ فالله يعلم.

وهذا خلطٌ بين إخلاص العبادة وقبول الظلم.

نعم، الله يعلم، وعلمه أعظم عزاء. لكن الله نفسه حرّم الظلم، وأمر بأداء الأمانات، ولم يجعل المطالبة بالحق نقيضاً للإخلاص. قد يطالب الإنسان بحقه لا حباً في تضخيم ذاته، بل حمايةً للعدل، وصيانةً للجهد، ومنعاً للمتعدي من تكرار تعديه.

الإخلاص لا يعني أن تكون بلا كرامة، ولا أن تمنح الآخرين رخصةً لاستغلالك، ولا أن تسمي العجز عن مقاومة البخس زهداً.

الفرق دقيق: أن تطالب بحقك لأن الحق ينبغي أن يُحفظ، شيء.

وأن تجعل قيمتك كلها متوقفةً على اعتراف الناس بك، شيء آخر.

أن تحزن لأن جهدك سُرق أمرٌ إنساني مشروع.

أما أن تتوقف عن كل خير لأن الناس لم يصفقوا، فذلك يكشف موضعاً في النية يحتاج إلى علاج.

المخلص لا يتنازل عن العدل، لكنه لا يحوّل مظلّمته إلى معبودٍ جديدٍ يستولي على عمره كله. يسعى إلى حقه، ثم لا يسمح لمن ظلمه أن يحتل قلبه إلى الأبد.

لا تجعل الإخلاص سوطاً على المتعبين

يخطئ بعض الناس حين يحوّلون الإخلاص إلى تهمةٍ جاهزة: كل من تحدث عن ألمه طالّبوه بتصحيح نيته، وكل من شكّا ظلماً اتهموه بحب النفس، وكل من طلب تقديرًا لجهد ذكّروه بأن يعمل لله.

وهكذا تُستخدم كلمةٌ نورانية لإسكات المجروحين.

لكن الله الذي أمر بالإخلاص هو الذي سمع شكوى المظلومين، وذكر أحزان أنبيائه، ولم يجعل التعبير عن الألم دليلاً على فساد القصد. فقد يقول المخلص: تألمت. وقد يحتاج إلى المواساة. وقد يطلب من الناس إنصافاً. فالإنسان لا يخرج بالإخلاص من طبيعته، ولا يصبح حجراً لا تؤذيه الإساءة.

الإخلاص يطهر الألم من الاعتراض على الله، لكنه لا يُلزم صاحبه بإنكار وجود الألم.

ويطهّر المطالبة بالحق من الانتقام الأعمى، لكنه لا يلغي المطالبة.

ويطهّر الحاجة إلى التقدير من العبودية للناس، لكنه لا ينفي أن الكلمة الطيبة حقٌّ أخلاقي وبلسمٌ للقلوب.

إن تحميل المظلوم وحده عبء الإخلاص، مع ترك الظالم بلا مساءلة، ليس تربيةً إيمانية؛ بل انحيازٌ للقوة يرتدي لغة الدين.

الإخلاص في عالم العرض

لم يكن الإنسان في زمنٍ مضى قادرًا على عرض تفاصيل حياته أمام هذا العدد من العيون. أما اليوم فقد أصبحت الصورة تسبق الحدث، وصار المرء قادرًا على تحويل عبادته، وحزنه، وعلمه، وإحسانه، بل حتى لحظات وداع أحبته، إلى مشهدٍ معروض.

ليس كل عرضٍ مذمومًا؛ فقد تنقل الصورة معرفة، ويوقظ المنشور همّة، ويصل الخير إلى آلاف الناس. لكن الخطر يبدأ حين يعيش الإنسان اللحظة لا لذاتها، بل لقابليتها للنشر. لا يسأل: ماذا يعني هذا؟ بل: كيف سيبدو أمام الآخرين؟

حينئذٍ تتسلل السوق إلى الروح، ويصبح الإنسان مديرًا دائمًا لصورتِهِ.

وسورة الإخلاص تردّه إلى السؤال الذي يسبق الصورة:

كيف يبدو هذا عند الله؟

فقد تنجح صورةً عند الناس وتفشل حقيقةً صاحبها في ميزان السماء. وقد يبدو عملٌ صغيرًا لا يلتفت إليه أحد، ثم يرفعه الصدق حتى يسبق أعمالًا ضخمةً شابهها طلب الظهور.

الإخلاص لا يأمرك بالاختفاء، بل يأمرك ألا تتحول حياتك إلى تمثيل.

أن يكون لك في السر نصيبٌ لا يعرفه إلا الله.

أن تبقى لك دمةٌ لم تُنشر، وصدقةٌ لم تُصوّر، ودعوةٌ لم تُرو، وموقفٌ خيرٌ لا ينتظر مقابله جمهورًا.

هذه الخبايا ليست هامش العبادة؛ قد تكون الجذور التي تحفظ شجرة القلب من السقوط.

حين يتحرر الكاتب من عبادة الصدى

للكاتب امتحانٌ خاص مع الإخلاص؛ لأنه يضع شيئًا من روحه في الكلمات، ثم يرسلها إلى الناس وينتظر صداها.

يفرح حين تُقرأ، ويتألم حين تُهمل، ويؤذيه أن تُسرق فكرته أو يُبخس أثره. وهذه مشاعر إنسانية لا يصح إنكارها. لكن عليه أن يسأل نفسه: هل أكتب لأخدم المعنى، أم أجعل المعنى خادمًا لاسمي؟

المخلص لا يكتب كتابةً ضعيفة بحجة الزهد في إعجاب الناس؛ بل يتقن لأن الله يحب الإحسان. يبحث، ويراجع، ويصقل عبارته، ويحفظ حق الفكرة، ثم يحاول ألا يجعل ذاته حجابًا بين القارئ والمعنى.

لا يعني الإخلاص أن يختفي اسم المؤلف، فالحقوق والأمانة العلمية تقتضيان نسبة الكلام إلى صاحبه. لكنه يعني ألا تصبح شهرة الاسم أثمن من صدق الرسالة.

وقد يكتب الإنسان كلمةً فلا يراها تنتشر، ثم تقع بعد زمنٍ في قلبٍ واحد فتغيّر حياته. هو لا يعلم طريقها، لكن الصمد لا يضيعها.

إن الكاتب المخلص لا يقيس قيمة كل نص بعدد المتفاعلين معه؛ فالأعداد تقيس مقدار الوصول، ولا تقيس دائماً مقدار الحق ولا عمق الأثر.

ربّ كلمةٍ ملأت الشاشات ثم انطفأت في يومها، وربّ عبارةٍ عاشت في روح إنسان حتى صارت جزءاً من نجاته.

الإخلاص لا يناقض الإتقان

يظن بعضهم أن العمل لله يكفي ولو كان ركيكاً؛ لأن النية حسنة. لكن النية الصالحة لا تجعل التقصير فضيلة. ومن الإخلاص أن تعطي العمل ما يستحقه من عناية؛ لأنك تقدمه لله قبل أن تقدمه للناس.

لا تجعل اسم الله ستاراً للكسل.

ولا تسمّ الفوضى توكلاً.

ولا تسمّ ضعف الإعداد زهداً في المظاهر.

إن الذي يعمل لأعين الناس قد يتقن ما يظهر ويهمل ما يخفى. أما المخلص فيعتني بالأساس الذي لا يراه الجمهور؛ لأنه يعلم أن الله يراه.

يبني الجدار مستقيماً من الجهة التي لن يطلع عليها المشتري.

يراجع المعلومة التي قد تمر على القارئ بلا انتباه.

يؤدي الأمانة حين يستطيع الخيانة بلا انكشاف.

وهنا يصير الإتقان عبادةً سرية داخل العمل الظاهر.

من وَحْدَةِ المعبود إلى وَحْدَةِ الشخصية

حين يكون للإنسان ربٌّ واحد، يستطيع أن يكون شخصاً واحداً.

أما من تعددت معبوداته، فإنه يغير جلده بحسب المجلس. يقول لكل فريقٍ ما يرضيه، ويمدح الفكرة أمام أصحابها ثم يذمها عند خصومها. لا لأنه تعلم المرونة، بل لأنه فقد المركز الأخلاقي الذي يحكم حركته.

الإخلاص يوجّد الداخل والخارج.

ليس معنى ذلك أن يقول المرء كل ما في نفسه بلا حكمة، أو يخاطب الناس بطريقة واحدة؛ فللحكمة أحوال، ولكل مقام مقال. إنما معناه ألا يناقض باطنه ظاهره طلباً للمنفعة، وألا يبيع الحقيقة بتغير المستمعين.

يصبح الإنسان هو هو حين يكون وحده وحين يكون بين الناس.

قد يضعف، وقد يخطئ، لكنه لا يبني حياته على ازدواجٍ متعمد. وإذا اكتشف في نفسه تناقضاً لم يزينه، بل عاد إلى الله.

إن التوحيد لا يجمع شتات الاعتقاد فقط؛ بل يجمع شتات الشخصية.

الإخلاص في المحبة

أن تحب لله لا يعني أن تتحول العلاقات إلى شعارات جامدة، بل أن تحب في الإنسان ما يحبه الله: صدقه، وخيره، ووفاءه، وإنسانيته، وأن تريد له الهداية والصلاح.

أما المحبة التي تُعْمِي عن الظلم فليست كاملة الصفاء. فإذا جعلت محبوبك فوق الحق، فقد منحتَه مكانًا لا يليق بمخلوق. وإذا أبغضت إنسانًا حتى أنكرت كل فضيلة فيه، فقد جعلت بغضك ميزانًا بدل ميزان الله.

الإخلاص يعيد العدل إلى العاطفة.

تحب دون غلو.

وتختلف دون فجور.

وتنصر قريبك إذا كان مظلومًا، وتمنعه إذا كان ظالمًا.

ولا تجعل الخصومة رخصةً للكذب، ولا الصداقة رخصةً للسكوت عن الباطل.

ما أصعب أن يبقى القلب عادلاً حين يحب أو يكره! لكنه أحد أجمل آثار (الله أَحَدٌ): أن تظل الحقيقة أعلى من روابطك، لأن الله أعلى من الجميع.

الإخلاص في الخوف

ليس المطلوب ألا تخاف؛ فالخوف غريزة تحفظ الإنسان. خاف موسى عليه السلام، وحزن الأنبياء، وضاعت صدورهم بما يقول المكذبون. لكن الخوف الطبيعي شيء، والخوف الذي يجعل المخلوق ندًا لله شيء آخر.

حين يمنعك خوف الناس من أداء واجبٍ لا يسقط عنك، أو يدفعك إلى تزيين الباطل، أو يجعلك تظن أنهم يملكون مصيرك استقلالاً، فقد تجاوز الخوف حدّه.

والعلاج ليس أن تتظاهر بالشجاعة، بل أن تعظم الله في قلبك حتى تتضاءل القوى الأخرى إلى حجمها الحقيقي.

فالتأغية قد يؤذي، لكنه لا يملك الكون.

والمرض قد يفتك بالجسد، لكنه لا يقطع رجاء الآخرة.

والفقر قد يضيق الحياة، لكنه لا ينقص قدر الإنسان عند ربه.

والموت نهاية الرحلة الأرضية، لكنه ليس نهاية الوجود.

كل مخوفٍ محدود، والله وحده بلا حد. وحين يسكن هذا المعنى القلب، لا يختفي الخوف تمامًا، لكنه يفقد حقَّ القيادة.

الإخلاص في الرجاء

كما يفسد القلب حين يخاف غير الله خوفًا تعبديًا، يفسد حين يعلّق رجاءه المطلق بغيره.

قد ينتظر الإنسان من شخص أن ينقذه من كل ألمه، أو من مالٍ أن يمنحه أمانًا لا ينقطع، أو من منصبٍ أن يعوّض سنوات الحرمان. ثم إذا نال ما أراد اكتشف أن الشيء كان أصغر من الفراغ الذي طلب منه أن يملأه.

المخلوقات تمنح بعض ما نحتاج، لكنها لا تستطيع أن تكون جوابًا عن حاجتنا كلها.

قد يمنحك البيت سترًا، لكنه لا يمنح القلب سكينة بذاته.

وقد يمنحك المال خيارات، لكنه لا يشتري معنى الحياة.

وقد يمنحك الناس الصحبة، لكنهم لا يستطيعون إلغاء وحشة الروح إذا ابتعدت عن الله.

الإخلاص أن ترجو من الأسباب ما أودع الله فيها، ولا تطلب منها ما لا يملكه إلا الصمد.

العطاء والمنع في ميزان المخلص

المخلص لا يعبد الله لأجل عطيةٍ محددة؛ فهو يعبدّه لأنه الله. لكنه يسأله الخير، ويرجو فضله، ويفرح بنعمه، فالله يحب من عبده أن يدعوه.

والمشكلة ليست في طلب العطاء، بل في تحويل العبادة إلى صفقة: إن أعطاني عبدته، وإن منعني تركت بابه.

هذا هو الفرق بين من يريد الله، ومن يريد شيئاً عند الله لا يرى الله إلا طريقاً إليه.

وقد يحتاج المؤمن زمناً طويلاً ليتعلم هذا المقام؛ فلا ينبغي أن يتعالى على نفسه أو غيره. نحن ضعفاء، وتشتد حاجتنا، وقد يضيق الصدر حين يتأخر المطلوب. لكننا نعيد القلب برفق:

يا رب، نحن نطلب نعمتك، لكننا لا نريد أن نفقد معرفتك إن تأخرت النعمة.

نطلب الفرج، لكننا نعلم أن ربوبيتك لا تتوقف على ما نريد.

ونعبدك في أيام الانفراج وأيام الانتظار؛ لأنك أنت الله في الحاليين.

حين يكون الله هو المقصود

ليس الإخلاص أن تلغى أهداف الحياة، بل أن تنتظم تحت الغاية الكبرى.

تتعلم، وتعمل، وتبني بيتاً، وتؤلف كتاباً، وتطلب رزقاً، وتسعى إلى مكانة تمكّنك من الخير؛ وكل ذلك يمكن أن يكون عبادةً إذا صلحت النية واستقامت الوسيلة.

فالله لا يريد من الإنسان أن يعيش بلا طموح، وإنما ألا يتحول طموحه إلى ربّ يبيع له كل شيء.

أن تطلب النجاح دون أن تكذب.

وأن تطلب المكانة دون أن تدوس الناس.

وأن تطلب الرزق دون أن تبيع ضميرك.

وأن تطلب التأثير دون أن تجعل نفوس الآخرين سلالاً لاسمك.

الإخلاص لا يطفى طاقة الإنسان؛ بل ينقيها من السموم. يجعله أشد عملاً وأقل عبوديةً للنتائج؛ لأنه يبذل ما يستطيع، ثم يعلم أن القبول والثمرة بيد الله.

سرُّ السورة التي تعدل ثلث القرآن

صحَّ عن النبي ﷺ أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. وليس معنى ذلك أنها تغني عن القرآن كله في كل مقام، أو أن تلاوتها ثلاث مرات تقوم مقام ختمه في جميع الأحكام والفضائل. وإنما لها من عظيم الأجر والمكانة ما جاء به الحديث؛ لما اشتملت عليه من توحيد الله ومعرفته.

فالقرآن في مقاصده الكبرى يخبر عن الله وأسمائه وصفاته، ويشرع لعباده الأوامر والنواهي، ويقص أخبار الخلق والجزاء. وقد خلصت سورة الإخلاص لبيان أصل المعرفة بالله، فكانت بهذا المعنى ذات منزلة عظيمة.

إنها قصيرة لأن الحقيقة التي تحملها لا تحتاج إلى زخرف، وعظيمة لأن كل معنى في الدين يعود إليها.

فالصلاة بلا توحيد جسدٌ بلا روح.

والأخلاق بلا مراقبة الله قد تتقلب مع المصلحة.

والصبر بلا رجاء الصمد يتحول إلى جمود.

والحرية بلا عبودية الأحد قد تنتقل من صنم إلى صنم.

كل الطريق يبدأ من معرفة مَنْ هو الله.

اقرأها كأنك تسمعها أول مرة

اعتاد اللسان سورة الإخلاص حتى ربما سبق نطقه انتباه القلب. نقرأها في الصلوات، وفي أذكار الصباح والمساء، وقبل النوم، فنخشى أن تصبح الألفة حجاباً عن الدهشة.

لكن حاول أن تقف معها مرةً كأنها تنزل الآن على قلبك.

حين تقول: **(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)**، فَيَنْشِ عَنْ الجهات التي تتنازعك، واجمعها إلى الله.

وحين تقول: **(اللَّهُ الصَّمَدُ)**، استحضر حاجتك التي عجزت عن شرحها، وضعها عنده.

وحين تقول: **(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)**، طهر تصورك من قوانين المخلوقات، واستشعر أن ربك أزليٌّ باقٍ لا يلحقه ضعف ولا فناء.

وحين تقول: **(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)**، أسقط من قلبك كل قوةٍ ضخمته حتى كادت تحجب عنك الله.

لا تقرأها لتفرغ منها، بل اقرأها لتفرغ بها من كل ما سوى الله.

السورة التي تعيدك إلى مركز الوجود

نخرج إلى الحياة فتبعثرنا التفاصيل.

تشدنا حاجات الجسد، ومخاوف المستقبل، وخصومات الناس، ورغبة الاعتراف، وضجيج الأخبار. ننسى ما هو الأصل وما هو الفرع، وما هو الباقي وما هو العابر. ثم تأتي سورة الإخلاص كيدٍ رحيمة تعيد الأشياء إلى مواضعها.

الله أحد: فلا تتعدد قبلتك.

الله الصمد: فلا تيأس عند انقطاع الأسباب.

لم يلد ولم يولد: فلا تُخضعه لقوانين العالم.

ولم يكن له كفواً أحد: فلا تخف من مخلوقٍ كأنه يملك مع الله شيئاً.

أربع آياتٍ تعيد بناء السماء داخل القلب.

ليست السماء بمعنى المكان، وإنما بمعنى العلو الذي يستمد منه الإنسان ميزانه واتجاهه. فبعد السورة يعرف أن فوق ضجيج الأرض حقيقة لا تتغير، وأن وراء قلب الأيدي خزائن لا تنتفد، وأن فوق أحكام الناس حكماً لا يظلم.

خاتمة الرحلة: حين لا يبقى في القلب إلا الله

الإخلاص ليس أن تغادر العالم، بل أن يخرج العالم من مقام الألوهية في قلبك.

أن يبقى المال في يدك، لا في موضع ربك.

وأن يبقى الناس أكلةً وأسباباً، لا مصادر لقيمتك ومصيرك.

وأن تبقى الجماعة موضع تعاونٍ على الحق، لا صنماً يبرر الباطل.

وأن يبقى القائد بشراً يُطاع في المعروف ويُراجع في الخطأ، لا ظلّاً للألوهية على الأرض.

وأن تبقى النفس عبداً تُهذب رغباتها، لا إلهاً يُعاد تشكيل الحق وفق هواها.

عندئذٍ يصبح التوحيد حياةً كاملة.

يصبح سكيناً حين تضطرب الأسباب.

وكرامةً حين يحاول الناس شراء الضمير.

وعدلاً حين تتنازعك العصبية.

وتواضعاً حين يرفعك النجاح.

ورجاءً حين يطول البلاء.

وصدقاً حين تغيب العيون.

إن سورة الإخلاص لا تضيف إلى قلبك فكرةً جديدةً فحسب؛ إنها تستردُّ قلبك من كل من احتلَّه بغير حق.

تستردُّه من الخوف.

ومن الرياء.

ومن التعلق.

ومن تقديس البشر.

ومن وهم الاستغناء.

ومن عبادة الذات.

ثم تعيده إلى صاحبه الحقيقي: إلى الله.

وهنا نفهم لماذا أحبها أصحاب النبي ﷺ، ولماذا كان بعضهم يكررها؛ فالمحب يحب أن يذكر صفات محبوبه. ليست التلاوة عنده حركةً لسان، بل عودةً قلبٍ إلى موطنه.

كلما بعثه العالم قرأ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

وكلما أُرهِقته الحاجات قرأ: (اللَّهُ الصَّمَدُ).

وكلما حاول الخيال أن يقيس الخالق على المخلوق قرأ: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

وكلما تضخَّم في عينه بشرٌ أو قوةٌ أو خوف قرأ: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

ثم يطوي السورة، لكن السورة لا تنطوي في قلبه.

يمضي بها إلى عمله وعلاقاته ومخاوفه وأحلامه. يراها في خلوته، وفي قراره، وفي طريقته في حب الناس والاختلاف معهم، وفي صبره على ما لم يفهمه من القدر.

وهكذا يصير الإنسان مخلصاً: لا لأنه بلغ مقاماً لا يضعف فيه، بل لأنه كلما أخذته الطرق عاد إلى الطريق الواحد؛ وكلما ازدحمت الأشياء في قلبه أعادها إلى مراتبها؛ وكلما نازعه الخلق وجهته قال في سرّه:

ربي الله.

ومقصودي الله.

وحسبي الله.

ولا أحد مثله.

وهذه هي سورة الإخلاص:

أربع آياتٍ في المصحف، لكنها إذا استقرت في القلب صارت وطناً من التوحيد، لا يستطيع العالم كله أن يُغرب المؤمن عنه.